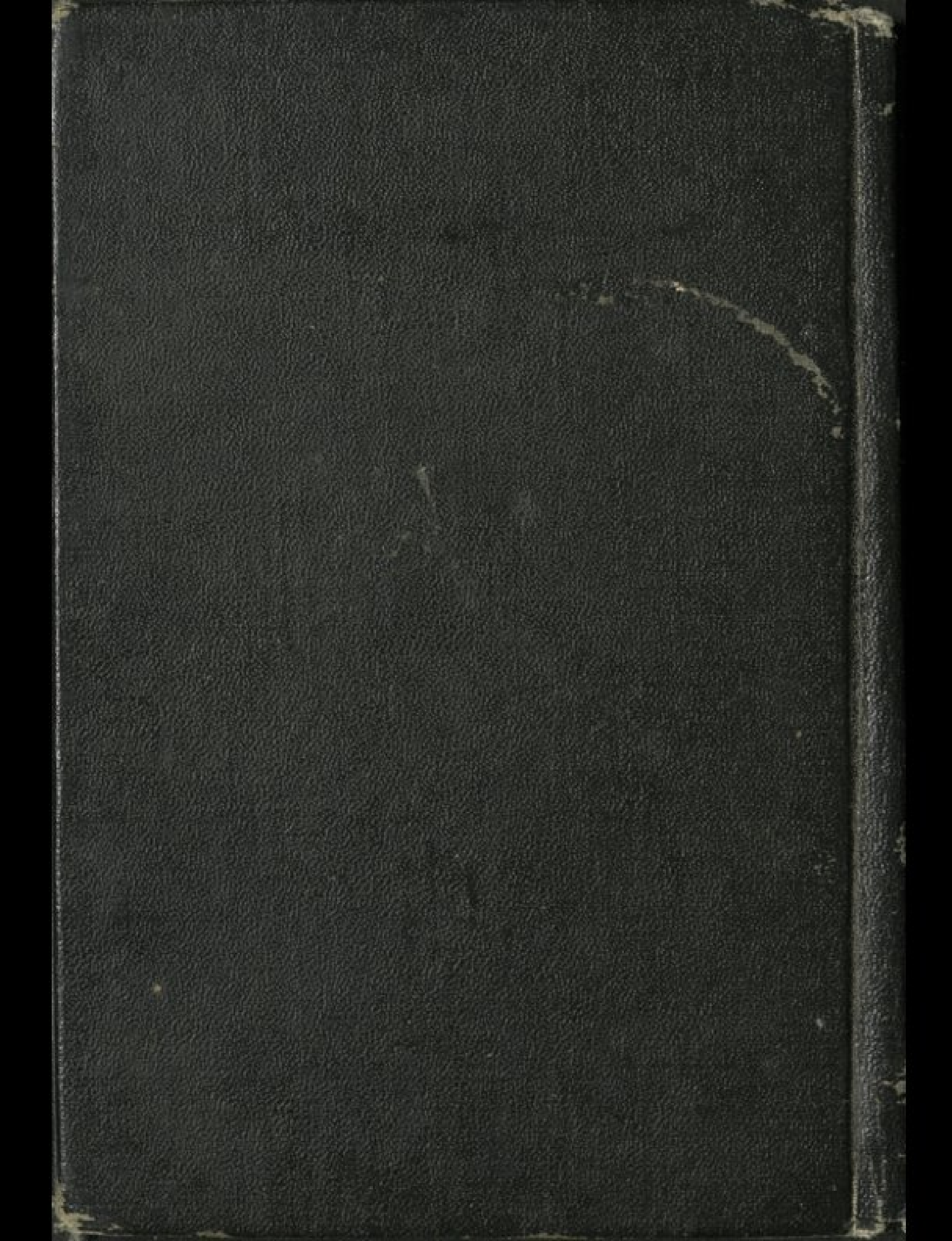
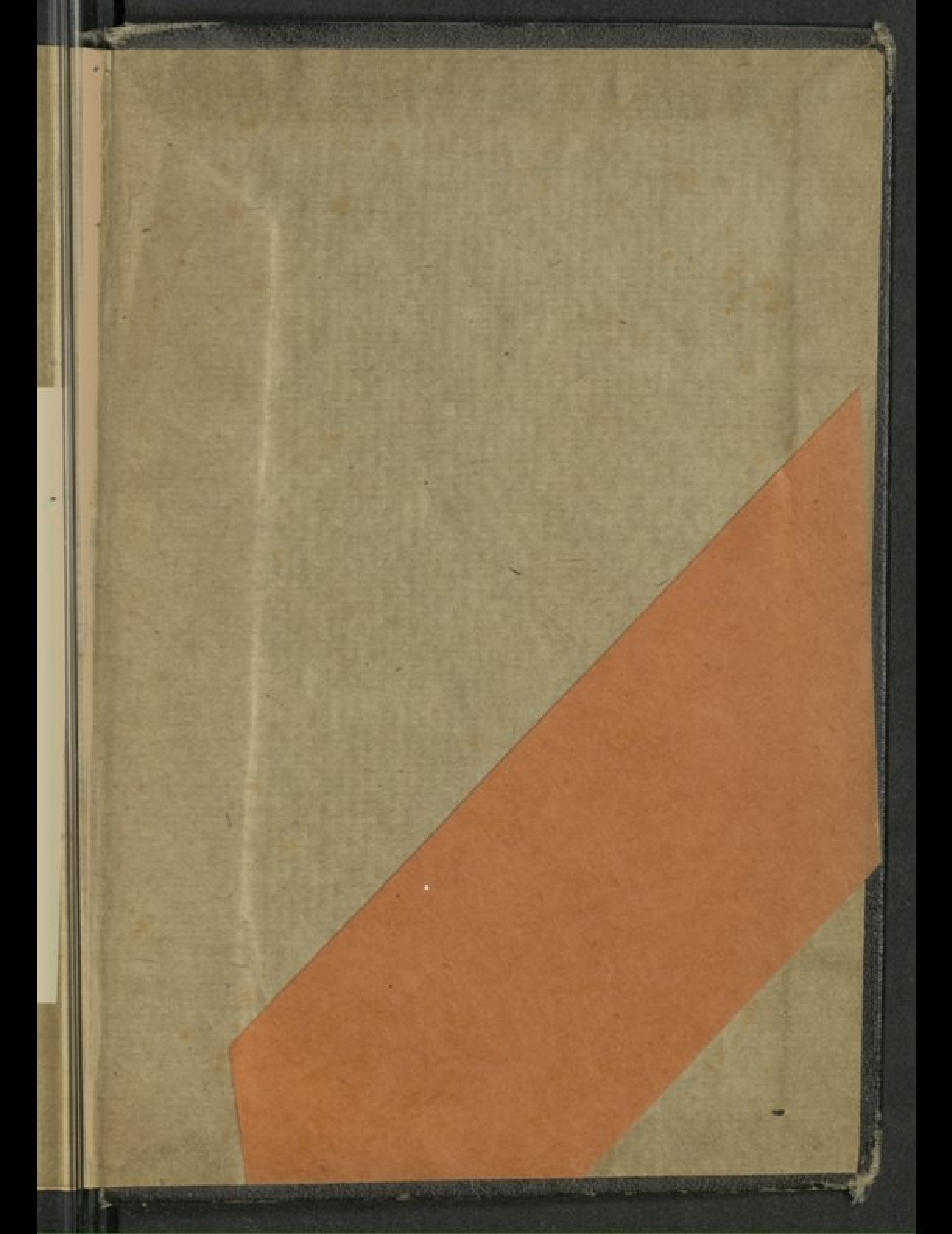
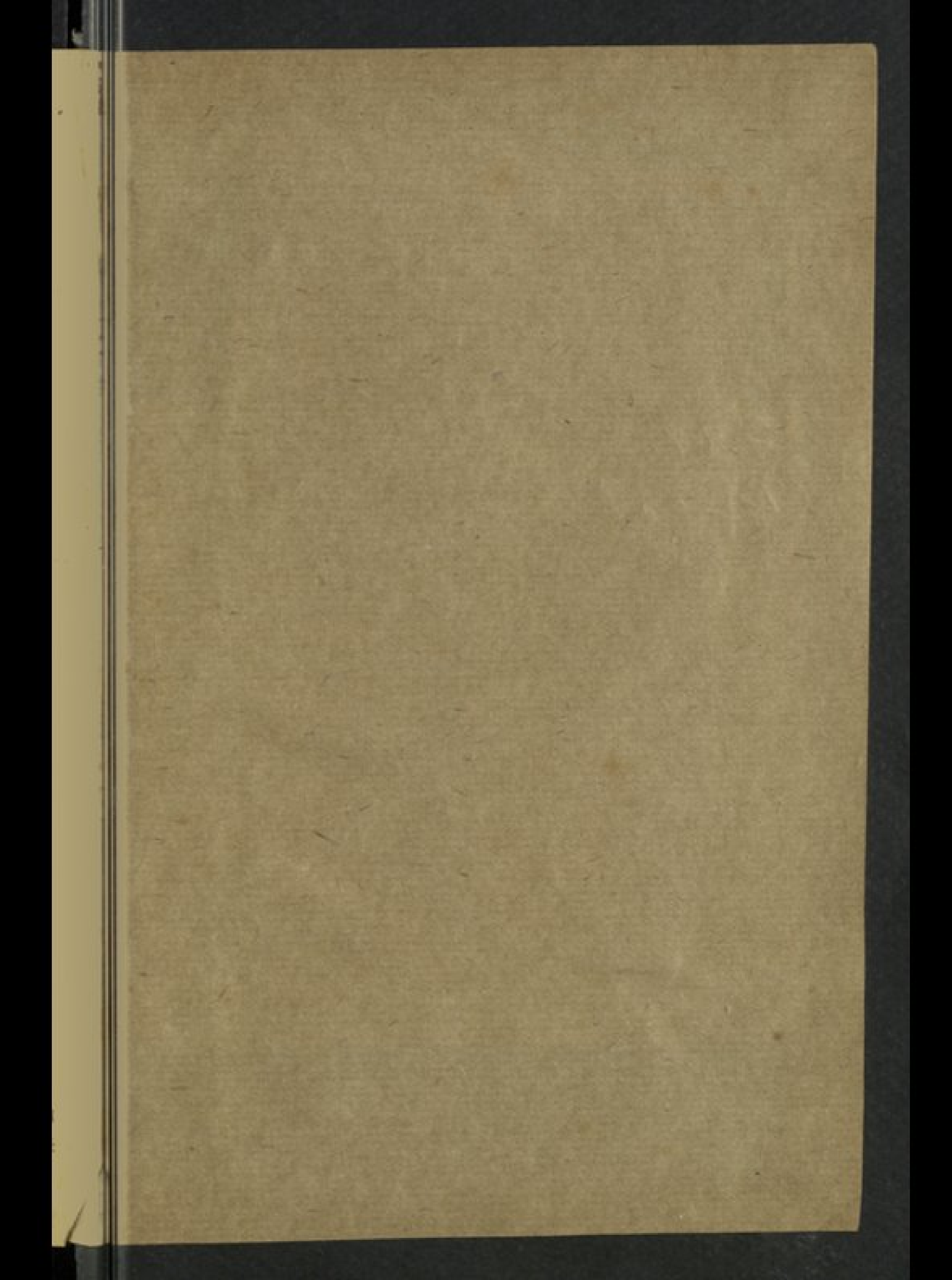
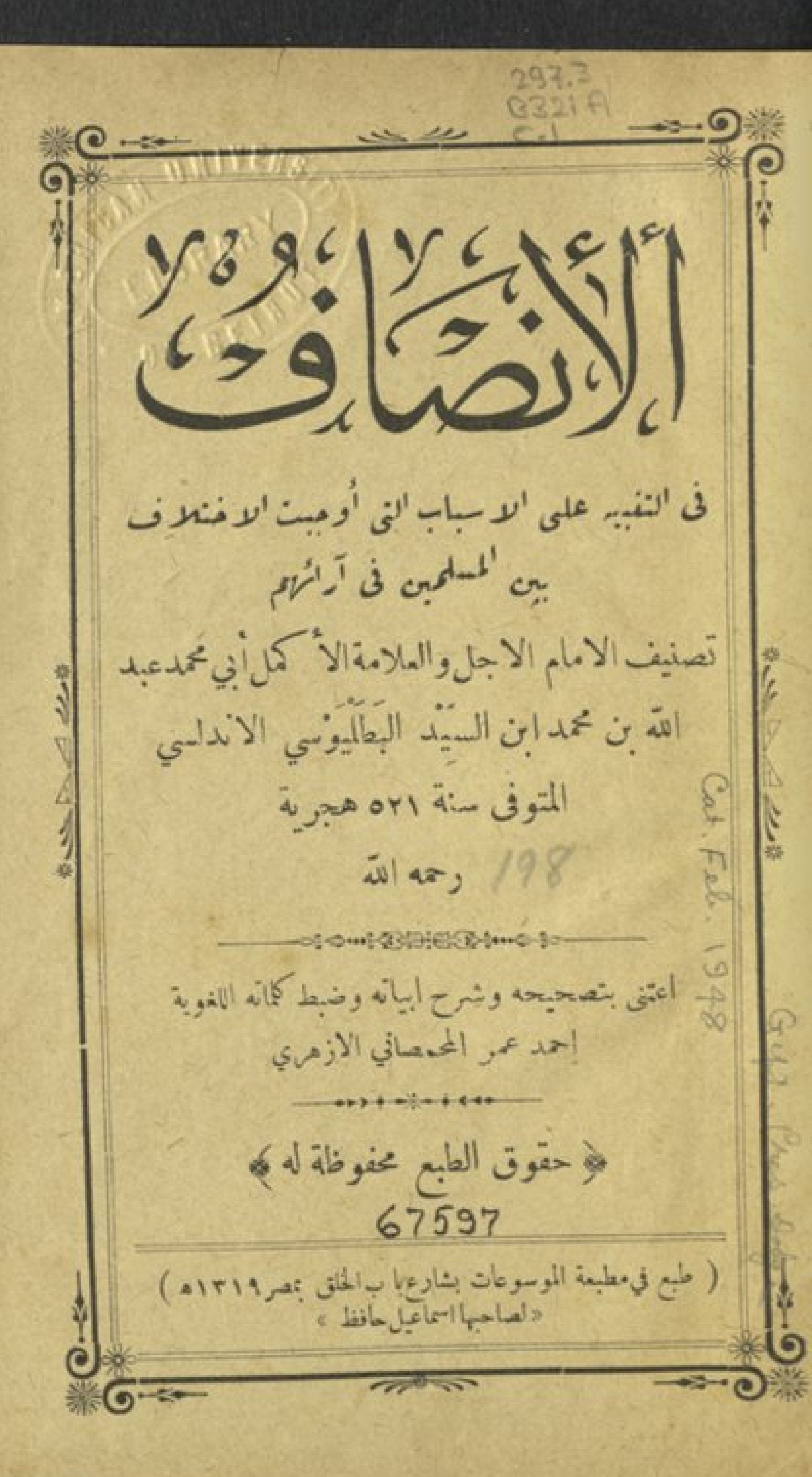








الإنصاف

في التنبيه على الاسباب التي اوجبت الاختلاف

بين المسلمين في آرائهم

تصنيف الامام الاجل والعلامة الأكمل أبي محمد عبد الله بن محمد ابن السيِّد البَطَلْيَوسي الاندلسي

المتوفى سنة ٥٢١ هجرية

رحمه الله

اعتنى بتصحيحه وشرح ابياته وضبط كلماته اللغوية

احمد عمر المحمصاني الازهري

(طبع في مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر ١٣١٩ هـ)

« لصاحبها اسماعيل حافظ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد وسائر الانبياء وآلهم أجمعين (أما بعد) فقد ظفرت بهذا الكتاب الغريب المثال العجيب المنزع بعد أن كان في زوايا الاهمال، تتعاقب عليه الاجيال بعد الاجيال، قصد مؤلفه النصح فيه لابناء الملة الاسلامية وأبان عن الأسباب التي أوجبت الاختلاف وجاء بالأدلة والشواهد من الكتاب والسنة وكلام العرب وسلك مسلكا ينبغي أن لا يغفل عنه عاقل منصف يعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال. بيد أنه قد أتى في خلال مواضيعه بطرَف شهية ونكت أدبية تلذ للمطالع وتدل على بُعد نظره وسعة اطلاعه رحمه الله

ولذا رأيت أن يُطبع هذا الكتاب الجليل كيلا يحرم الناس من فوائده الجمة ورغبة في انتشار العلم النافع وإبعاداً للجهل المضرّ بقدر الامكان مع حلّ لطيف لشواهده وضبطٍ لكلماته اللغوية مبتدِأً بترجمة المؤلف تنويهاً بعظيم منزلته وما توفيقي واعتصامي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب

احمد عمر المحمصاني
الازهري



هو الامام أبو محمد عبد الله بن محمد بن السِّيد البَطَلْيَوْسي النحوي كان اماماً في علوم اللغات والآداب متبحراً فيها مقدماً في معرفتها واتقانها سابقاً مبرّزاً سكن مدينة بَلَنسية من جزيرة الاندلس وكان الناس يجتمعون اليه ويقرؤن عليه ويقتبسون منه وكان حسن التعليم جيّد التفهيم ثقة ضابطاً مأموناً ذا تآليف نافعة ممتعة تدل على رسوخه واتساعه ونفوذه وامتداد باعه وكل شيء تكلم فيه كان غاية في الجودة روى عن أخيه علي بن محمد وأبي بكر عاصم بن أيوب الأديب وعن أبي سعيد الورّاق وأبي علي الغساني وغيرهم من أعيان عصره وأعاظمهم وله نظم حسن فمن ذلك قوله

أخو العلم حيٌّ خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يظن من الاحياء وهو عديم

وله في طول الليل

ترى ليلنا شابت نواصيه كبرة كما شبتُ أم في الجوّ روض بهار
كأن الليالى السبع في الجوّ جمّعت ولا فصل فيما بينها لنهار

ومولده في سنة أربع وأربعين وأربعمائة بمدينة بطليوس من

جزيرة الاندلس وتوفي في منتصف رجب سنة احدى وعشرين وخمسمائة بمدينة بلنسية رحمه الله تعالى • والسِّيد بكسر السين وسكون الياء من أسماء الذئب سُمِّي به جدّ المترجم

﴿ مؤلفاته ﴾

أما تآليفه فهي كثيرة منها (١) كتاب المثلث في مجلدين أتى فيه بالعجائب ودل على اطلاع عظيم فان مثلث قطرب في كراسة واحدة مع أنه استعمل فيها الضرورة ومالا يجوز وغلط في بعضها (٢) كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وهو شرح مستوفى نبه فيه على مواضع الغلط منه (٣) شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري جمع فيه المقاصد وهو أجود من شرح أبي العلاء صاحب الديوان الذي سماه ضوء السقط (٤) كتاب في الحروف الخمسة وهي السين والصاد والضاد والطاء والدال جمع فيه كل غريب (٥) كتاب الحلل في شرح ابيات الجمل (٦) كتاب الحلل أيضاً في أغاليط الجمل (٧) كتاب الانصاف في التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة وهو الكتاب الذي نحن بصدده (٨) كتاب شرح الموطأ (٩) شرح ديوان المتنبي قال ابن خلكان أنه لم يقف عليه وقيل انه لم يخرج من المغرب اهـ ملخصاً من كتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس لأحمد ابن يحيى بن عميرة الضبي ومن كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم لأبي القاسم خلف بن عبدالملك بن بُشْكُوال ومن وفيات الأعيان للقاضي احمد بن خلكان رحمه الله آمين



الحمد لله [١] مُسْبغ النِّعَم، ومسوّغ القسم، والمنفرد بالقِدَم، وباريء النَّسَم، وموجده بعد العدم، وباعث العظام الهامدة والرِّمم، والمخالف بين الهيئآت والشِّيَم، حكمة تاهت في فهمها عقول ذوي الحِكَم، خلق الاجسام من أضداد متنافرة ابتدعها بقدرته، وألَّف نقائضها بحكمته حتى أبرزها للعيان متغايرة الصور والألوان، متقنة الأشكال، مخترعة على غير

---

(١) يوجد في بعض النسخ بعد البسملة مانصّه . رَبِّ زدني عِلْماً . أخبرنا الفقيه الفاضل أبو اسحاق ابراهيم بن محمد المتقن بن ابراهيم اللَّخمي السَّبْتي قَدِم علينا ثغر الاسكندرية وقرأته عليه في شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة قال قرأت على الفقيه الحافظ أبي محمد عبد الله ابن محمد بن السِّيد البَطَلْيَوْسي رحمه الله في جمادي الأولى سنة ست عشرة وخمسمائة ببلنسية قال الحمد لله الخ

مثال، وخالف بين الآراء والاعتقادات كما خالف بين الصور والهيئات، وأخبرنا بما في ذلك من أوضح الدلالات. فقال عزّ من قائل «ومن آياته خلقُ السّموات والأرضِ واختلافُ ألسنتِكم وألوانكمْ إنّ في ذلك لآياتٍ للعالمين» وقال جلّ جلاله «ولا يزالونَ مختلفينَ إلاّ من رحِم ربكَ ولذلك خلَقهم» وبيّنَ لنا أنه قديرٌ على غير ما أجرى العادة به فقال «ولوشاء اللهُ لجمَعهُم على الهُدى فلا تكونَنّ مِن الجاهلين» ونبّهنا ألطف تنبيهٍ على ما في هذا الخلاف الموجود في البشر، المركوز في الفطر، من الحكمة البالغة وأنّه جعله إحدى الدلائل على صحة البعث الذي أنكره من ألحدَ في أسمائه وكفر بسوابغ نعمائه، فقال وقوله الحق، ووعده الصدق «وأقسَموا باللهِ جهدَ أيمانِهم لا يبعثُ اللهُ من يموتُ بلَى وعداً عليه حقّاً ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمُون. ليبيّنَ لهمُ الّذي يختلفون فيه وليعلمَ الّذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين»

وهذه الآية إحدى ما تضمنه القرآن العظيم من الأدلة البرهانية على صحة البعث. ووجهُ البرهانِ المنفكِ من هذه الآية التي لا يقدرها حقّ قدرها إلاّ العالمون، ولا يتنبه

لغامض سرّها إلا المستبصرون ، أنّ اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب اختلاف الحق في نفسه وإنما تختلف الطرق الموصلة اليه ، والقياسات المركبة عليه . والحق في نفسه واحد فلما ثبت أنّ ههنا حقيقة موجودة لامحالة وكان لاسبيل لنافي حياتنا هذه إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب لنا الائتلاف، ويرفع عنا الاختلاف ، إذ كان الاختلاف مركوزاً في فِطرنا،مطبوعا في خلقنا ، وكان لايمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الخلقة ونقلنا الى جِبلةٍ غير هذه الجبلة صحّ ضرورةً أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة فيها يرتفع الخلاف والعناد ، وتزول من صدورنا الضغائن الكامنة والاحقاد ، وهذه هي الحال التي وعدنا الله سبحانه بالمصير اليها فقال «ونزعنا في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين » ولا بدّ من كون ذلك بالاضطرار إذ كان وجود الخلاف يقتضي وجود الائتلاف لانه ضرب ونوع من المضاف وكان لابدّ من حقيقةٍ وإن لم نقل ذلك صرنا إلى مذهب السوفسطائية في نفي الحقائق فقد صار الخلاف الموجود في العالم كما ترى أوضح الدلائل على كون البعث الذي ينكره المنكرون، وينازع فيه الملحدون الكافرون،

فسبحان من أودع لنا كتابه العزيز تصريحاً وتلويحاً كل لطيفة لمن قدره حق قدره ووفق لفهم غوامض سرّه ، وصلى الله على من هدانا به من الضلالة ، وعلمنا بعد الجهالة ، وإياه نسئل أن يوفقنا لاقتفاء آثاره، حتى يحلنا دار الكرامة في جواره

وإني لما رأيت الناس قد أفرطوا فى التأليف ، وأملوا الناظرين بأنواع التصنيف فى أشياء معروفة، وأساليب مألوفة يغني بعضها عن بعض صرفت خاطري الى وضع كتاب فى أسباب الخلاف الواقع بين الأمة، قليل النظير ، نافع للجمهور عجيب المنزع ، غريب المقطع ، يشبه المخترع وإن كان غير مخترع ينمي الى الدين بأدنى نسب . ويتعلق من اللسان العربي بأقوى سبب ، ويخبر من تأمّل غرضه ومقصده بأن الطريقة الفقهية مفتقرة الى علم الادب ، مؤسسة على أصول كلام العرب ، وأن مَثَلها ومثله قول أبي الاسود[1] الدؤلي

(١) اسمه ظالم بن عمرو بن سفيان وهو واضع علم النحو بتعليم الامام علي رضي الله عنه وكان من وجوه شيعته واستعمله على البصرة بعد ابن عباس توفي سنة تسع وستين من الهجرة وهذا البيت يصف به نبيذ الزبيب وأطلقه على مذهب العراقيين فى الانبذة وحض على ترك الخمر

فإلاَّ يكُنْها أو تكُنْهُ فإنه أخوها غذته أمُّه بلبانها

وليس غرضي في كتابي هذا أن أتكلم في الاسباب التي أوجبت الخلاف الاعظم بين من سلف وخلف منَ الأمم وانما غرضي أن أذكر الاسباب التي أوجبت الخلاف بين أهل ملَّتنا الحنيفية التي جعلنا الله من أهلها وهدانا الى أوضح سبلها حتى صار من فقهائهم المالكي والشافعي والحنفي والأوزاعي، ومن ذوي مقالاتهم الجبْريّ والقَدَري والمشبِّه والجَهْمي [1]، ومن شيعتهم الزيدي [2] والرافضي والسبَئي [3] والغرابي والمخمّس

للاجماع على تحريمها وجعل الزبيب أخاً للخمر لان أصلهما الكرمة ه من شرح شواهد سيبويه للشنتمري وخزانة الادب للبغدادي

«١» نسبة الى جهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ (قرية بخارى) وقتله سالم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية ه من الملل والنحل للشهرستاني

«٢» نسبة الى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. واتباعه ساقوا الامامة في اولاد فاطمة فقط

«٣» نسبة الى عبد الله بن سبأ رئيس الغلاة من الروافض. والغرابية فرقة من الرافضة زعموا أن جبريل أخطأ فانه أُرسل الى عليّ فجاء الى محمد صلى الله عليه وسلم. والمخمِّسة فرقة قالت بالوهية

والمحمدي وغير هؤلاء من الفرق الثلاث والسبعين التى نص
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا غرضي أن أحصر أصناف المذاهب والآراء، وأناقض
ذوي البدع المضلة والاهواء، لأن هذا الفن من العلم قد
سبق إليه ونبه فى مواضع كثيرة عليه، وانما غرضي أن أنبه
على المواضع التي منها نشأ الخلاف بين العلماء، حتى تباينوا في
المذاهب والآراء، وأنا أسترشد الله سبحانه وتعالى الى سبيل
الحق وأستهديه، وأسأله العون على ما أوحاله وأنويه، وأرغب
إليه في أن يعصمني من الزلل فيما أقوله وأحكيه، إنه وليّ
الطول ومسديه، لارب سواه ولا معبود حاشاه

ذكر الأسباب الموجبة للخلاف كم هي

أقول وبالله العصمة إن الخلاف عرض لأهل ملتنا من
ثمانية أوجه كل ضرب من الخلاف متولد منها ومتفرع عنها
(الأول) منها اشتراك الألفاظ والمعاني (الثاني) الحقيقة
والمجاز (الثالث) الأفراد والتركيب (الرابع) الخصوص

خمسة وهم أصحاب الكساء سيدنا محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين •
تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً

والعموم (الخامس) الرواية والنقل (السادس) الاجتهاد فيما لانصّ فيه (السابع) الناسخ والمنسوخ (الثامن) الأباحة والتوسيع . ونحن نذكر من كل نوع من هذه الانواع أمثلة تنبه قارئ كتابنا هذا على بقيتها إذ كان استيفاء جميع ذلك من المتعذر على من حاوله وبالله التوفيق

الباب الاول

(في الخلاف العارض من جهة اشتراك الالفاظ واحتمالها التأويلات الكثيرة)

هذا الباب ينقسم الى ثلاثة أقسام (أحدها) اشتراك في موضوع اللفظة المفردة (والثاني) اشتراك في أحوالها التي تعرض لها من إعراب وغيره (والثالث) اشتراك يوجبه تركيب الألفاظ وبناء بعضها على بعض

فأما الاشتراك العارض في موضوع اللفظة المفردة فنوعان . إشتراكٌ بجمع معانٍ مختلفة متضادة . واشتراك بجمع معانٍ مختلفة غير متضادة . فالأول كالقَرْء ذهب الحجازيون من الفقهاء الى أنه الطهر وذهب العراقيون الى أنه

الحيض ولكل واحد من القولين شاهد من الحديث واللغة أما حجة الحجازيين من الحديث فما روي عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت رضي الله عنهم أنهم قالوا الأقراء الأطهار . وأما حجتهم من اللغة فقول الأعشى (١)

أفي كل عام أنت جاشم غزوة تشدُّ لأقصاها عزيمَ عزائكا
مورِّثةً مالاً وفي الحيِّ رفعةً لما ضاع فيها من قُروء نسائكا

وأما حجة العراقيين من الحديث فقول النبي صلى الله عليه وسلم للمستحاضة . أقعدي عن الصلاة أيام أقرائك . وأما حجتهم من اللغة فقول الراجز

يارُبَّ ذي ضِغْنٍ عليَّ فارض يُرى له قرءٌ كقرء الحائض

وقد حكى يعقوب ابن السكِّيت وغيره من اللغويين أن العرب تقول أقرأت المرأة إذا طهرت وأقرأت اذا حاضت وذلك أن القرء في كلام العرب معناه الوقت فلذلك صلح للطهر والحيض معاً ويدل على ذلك قول الشاعر

«١» هو الأعشى الاكبر واسمه ميمون بن قيس بن جندل ويقال له أعشى بكر بن وائل وهو صاحب المعلقة التى أولها

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما تردّ سؤالي

شَنِئْتُ(١) العَقْرَ عَقْرَ بَني شَليلٍ   اذا هبّتْ لقارئها الرياح

وقد احتج بعض الحجازيين لقولهم بقوله تبارك وتعالى ثلاثة قروء فأثبت الهاء في ثلاثة فدل ذلك على أنه أراد الأطهار ولو أراد الحيض لقال ثلاث قروء لأن الحيضة مؤنثة . وهذا لاحجة فيه عند أهل النظر وانما الحجة لهم فيما قدمناه . وانما لم يكن فيه حجة لأنه لا ينكر أن يكون القرء لفظاً مذكراً يعني به المؤنث ويكون تذكير ثلاثة حملاً على اللفظ دون المعنى كما تقول العرب جاءني ثلاثة أشخص وهم يعنون نساء والعرب تحول الكلام تارة على اللفظ وتارة على المعنى ألا ترى الى قراءة القراء « بلى قد جاءتكِ آياتي فكذبتِ بها » بكسر الكاف والتاء وفتحهما

ووقوع الأسماء على المسميات في كلام العرب ينقسم أربعة أقسام (أحدها) أن يكون المسمى مذكراً واسمه مذكر كرجل مسمى بزيد أو عمرو (والآخر) أن يكون

«١» الذي في لسان العرب . كرهت العقر الخ والعَقر موضع وشليل جد جرير بن عبدالله البَجَلي . وقوله اذ هبّت لقارئها الرياح أي لوقت هبوبها . والبيت لمالك بن الحارث الهذلي

المسمى مؤنثاً واسمه مؤنث كامرأة تسمى فاطمة (والثالث) أن يكون المسمى مؤنثاً واسمه مذكر كامرأة تسمى بجعفر وزيد قال الراجز

جعفرُ ياجعفر ياجعفرُ إن أكُ دحداحاً فأنتِ أقصرُ
أَوْ أَكُ ذا شيب فأنتِ أكبرِ غــرَّكِ سربالٌ عليكِ أحمــر
ومُقَنَّعٌ من الحرير أصفر وتحت ذاك سَوْأَةٌ لو تذكر

(والرابع) أن يكون المسمى مذكراً واسمه مؤنث كرجل يسمى طلحة أو حمزة وهذا يخص الاسماء الأعلام دون الأجناس والأنواع . وهكذا مذهب العرب في الصفة والموصوف فربما كان الموصوف مطابقاً لصفته في التذكير والتأنيث كقولهم هذا رجل قائم وهذه امرأة قائمة وربما كان مخالفاً لصفته في التذكير والتأنيث كقولهم رجل رَبْعَةٌ وعلاّمة ونسّابة وفي المؤنث امرأة حاسر وعاشق قال ذو الرِّمة [١]

(١) هو أبو الحارث غيلان بن عقبة من بني صعب بن مالك بن عدي أحد فحول الشعراء ومن عشاق العرب المشهورين . وذو الرّمة بكسر الراء وضمها . وسُمِّيَ بذي الرّمة لقوله في أُرجوزته يصف وتداً .

لم يَبْقَ منها أبدَ الأبيدِ غيرُ ثلاثٍ ماثلاتٍ سُودِ
وغيرُ مَشْجُوجِ القَفَا موتود فيــه بَقَايا رُمَّةِ التقليد

ولو أنّ لقمانَ الحكيم تعرَّضتْ   لعينيه ميٌّ حاسِراً كاد يَبْرَقُ (١)

فقد تبين أن لا حجة في دخول الهاء في ثلاثة

ومن الألفاظ المشتركة الواقعة على الشيء وضده قوله تعالى «فاصبحتْ كالصَّرِيم» قال بعض المفسرين معناه كالنهار المضيء بيضاء لاشيء فيها وقال آخرون كالليل المظلم سوداء لاشيء فيها وكلا القولين موجود في اللغة أما من قال كالنهار المضيء فحجته قول زهير (٢)

بكرت عليه غدوة فرأيته   قعوداً لديه بالصريم عواذله

يعني الصباح وأما من قال كالليل فحجته قول الراجز

تهوي هوِيَّ أنجم الصريم . وقال آخر

كأنا والرحال على صِوَار   برمل خُزاق أسلمهُ الصريم «٣»

يعنى ما بَقِيَ في رأس الوتِدِ من رمَّة الطُنُب المعقود فيه • وذوالرِّمة بكسر الراء وضمها تُوفّي سنة سبع عشر ومائة

(١) أى يحار وهذا البيت من قصيدة طويلة يقول فيها

وإنسانُ عيني يَحْسُرُ الماءُ تارة   فيبدو وتارات يَجُمُّ فيَغرَقُ

(٢) هو زهير بن أبي سُلمى واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني من مزينة بن أدّ وهذا البيت من قصيدته المشهورة التى أولها

صحا القلبُ عن سَلْمى وأقصر باطله   وعُرِّي افراس الصبا ورواحله

«٣» هذا البيت من أبيات الحماسة وقائله بُرج بن مُسْهر الطائى

قال بعضهم معناه انحسر عنه الرمل وقال قوم معناه خرج من الليل وانجلى عنه كما قال النابغة (١)

حتى غدا في بياض الصبح منصلتاً (٢) يقرو الاماعز من لبنان والأكما

وإنما سمي كل واحد منهما صريماً لانه ينصرم اذا وافى

من قصيدة اولها

وَنَدْمانٍ يَزيدُ الكأسَ طِيباً سَقَيْتُ إذا تغوَّرَتِ النُّجومُ

قال شارح الحماسة الامام ابي زكريا يحيي الخطيب في شرح البيت كأنا والرحال الخ شبه ركابهم بقطيع من البقر بالرمل المذكور أسلمه الصريم الى الصيادين والكلاب نخفت وعدت والصريم استعمل في الصبح والليل جميعاً لان كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه وقت السحر اهـ

(١) هو النابغة الذبياني واسمه زياد بن معاوية وهذا البيت من قصيدته التي أولها

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما واحتلت الشرع فالأجزاع من إضما

الحبل الوصل وانجذم انقطع والشرع بفتح الشين عن أبي عمرو وموضع وبالكسر عن الأصمعي وأبي عبيدة والاجزاع جمع جزع وهو منتهى الوادي وإضم واد باليمامة اهـ من شرح ديوانه للوزير أبي بكر بن عاصم

(٢) الذي في شرح ديوانه هكذا

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتاً الخ ويروى ثم اغتدى ينفض الاعطاف منصلتاً الخ ويقرو أي يتبع والأماعز جمع امعز وهي الأماكن الصلبة الكثيرة الحصي والمنصات الحاد الماضي ولبنان الجبل المعروف اهـ

الآخر والمعنى أيضاً يشهد لكل واحد من القولين لان العرب تقول لك بياض الارض وسوادها يعنون بالبياض مالا عمارة فيه وبالسواد ما فيه العمارة فهذا ما يحتج به لمن ذهب الى معنى البياض وأما من ذهب إلى معنى السواد فانما أراد أنها احترقت بريح صر أو نار كقوله تعالى « فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت »

ومن هذا النوع قول أبي بكر رضى الله عنه طوبى لمن مات فى النأنأة فانه يحتمل أنه يريد أول الأسلام عند قوة البصائر وقبل وقوع الخلاف ويحتمل أنه يريد به آخر الأسلام اذا ضعفت البصائر وكثرت البدع والخلاف ويدل على صحة المعنيين جميعاً قوله صلى الله عليه وسلم إن الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء[1] . والنأنأة عند العرب الضعف لايخص به الصغير دون الكبير قال امرؤ القيس في ذلك[2]

لعمرك ماسعدٌ بخلّة آثم ولا نأنأٍ يوم الحفاظ ولاحصرْ

وتأوله أبو عبيد على أنه أراد به أول الاسلام وليس فى

---

(١) قال صاحب لسان العرب مانصه وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الغرباء فقال الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي اه وطوبى للغرباء أي الجنة لهم

(٢) من قصيدته التي يمدح بها سعد بن الضّباب الايادي ومطلعها

لفظ الحديث مايقتضي ذلك على أن بعض الرواة قد روى في النأنأة الأولى فإن صح هذا فالقول ماقاله ابو عُبيد

ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم قُصُّوا الشارب وأعفوا اللّحَى . قال قوم معناه وفّروا وكَثّرُوا وقال آخرون قَصّروا وأنقصوا وكلا القولين له شاهد من اللغة . أما من ذهب إلى التكثير فحجته قوله تعالى « حتَّى عفَوْا » وقول جرير

ولكِنّا نُعِضُّ(١) السيفَ منها بأسْؤُق عافيات اللحم كُوْم

وأما من ذهب الى الحذف والتقصير فحجته قول زهير(٢)

تحمّل اهلُهـا منها فَبَانُوا على آثار مَنْ ذَهبَ العَفَاءُ

فهذه جملة من اللفظ المشترك الواقع على معان مختلفة متضادة

لعمرك ماقابي الى أهله بحُرٍ ولا مُقصِرٍ يوماً فيأتيني بقُر

والخلة في البيت الصداقة والمودة يقال للرجل هو خلي وخليلي . والحفاظ الغضب . والنأنأ الضعيف المقصر في الامر . والحصر الضيق الصدر عن تحمل أمر

(١) أى نعرقب النوق للضيوف والأسؤق جمع ساق . والكوم جمع كوماء وهي الناقة العظيمة السّنام . وهذا البيت لم نجده فى ديوان جرير المطبوع وقد عزاه صاحب لسان العرب للبيد

(٢) يذكر داراً وهذا البيت من قصيدته التى أولها

عفا من آل فاطمة الجواء فيُمْنٌ فالقوادم فالحساءُ

وأما اللفظ المشترك الواقع على معان مختلفة غير متضادة فنحو قوله تعالى « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا » الى آخر الآية . ذهب قوم إلى أن كلمة أو ههنا للتخيير كالتي في قولك جالس زيداً أو عمراً فقالوا السلطان مخير فى هذه العقوبات يفعل بقاطع السبيل أيها شاء وهو قول الحسن البصري وعطاء وبه قال مالك رحمه الله وذهب آخرون إلى إن كلمة أو ههنا للتفصيل والتعيين فمن حارب وقتل وأخذ المال صلب ومن قتل ولم يأخذ المال قتل ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده وهو قول أبي مجلز[1] وحجاج بن أرطاة[2] عن ابن عباس وبه قال ابو حنيفة والشافعي رحمهما الله تعالى واحتجوا بحديث رواه عثمان وعائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال . لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث زنا بعد احصان أو كفر بعد ايمان أو قتل نفس بغير نفس .

والجواء ويمن والقوادم والحساء مواضع وأما قوله على آثار من ذهب العفاء قال أبو عُبيد وغيره العفاء التراب وهذا كقولهم عليه الدَّبار اذا دعا عليه أن يدبر فلا يرجع ه من لسان العرب بزيادة

(١) هو لاحق بن حُمَيْد تابعي (٢) النخعي الكوفي توفي سنة ١٤٥

واحتجوا من اللغة بأن العرب تستعمل كلمة أو للافراد والتفصيل فيقولون اجتمع القوم فقالوا حاربوا أو صالحوا أي قال بعضهم كذا ومنه قوله تعالى «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» وليس في الفرق فرقة تخير بين اليهودية والنصرانية وإنما المعنى أن بعضهم وهم اليهود قالوا كونوا هوداً وبعضهم وهم النصارى قالوا كونوا نصارى فهذا تفصيل لاشك فيه والعرب تلف الكلامين المختلفين وترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل مخبر عنه ما يليق به قال الله تعالى «ومن رحمته جعل لكم الليلَ وَالنهارَ لِتسكُنُوا فيه وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فضلِه» ونحوه قول امرئ القيس

كأنَّ قلوبَ الطير رطباً ويابساً لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحشَفُ البالي (١)

ولو جاء هذا الكلام مفصلا لقال كأن قلوب الطير رطباً

«١» هذا البيت من قصيدته المشهورة التي مطلعها

أَلاَعِمْ صباحاً أيها الطلل البالي وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُرِ الخالي

والعناب في البيت التمر المعروف والحشف مايبس من التمر ولم يكن له ولا طعم نوى قال الوزير أبو بكر هذا أحسن بيت جاء باجماع الرواة في تشبيه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين وتقديره كأن قلوب الطير رطباً العناب ويابساً الحشف البالي فشبه الطري من القلوب بالعناب والعتيق بالحشف ه من شرح ديوان امرئ القيس

العناب ويابساً الحشف البالى وكذلك الآية لو جاءت مفصلة لقال جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبتغوا من فضله

واختلفوا فى النفي من الارض ماهو فقال الحجازيون ينفى من موضع الى موضع وقال العراقيون يسجن ويحبس والعرب تستعمل النفي بمعنى السجن قال بعض المسجونين

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها فلسنا من الاموات فيها ولا الاحيا
اذا جاءنا السجان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ومن هذا النوع قوله صلى الله عليه وسلم . أَسْرَعُكُنَّ لحاقًا بي أَطْولُكُنَّ يداً . قاله لنسائه فحسبنه من الطول الذي هو ضد القصر فظنت سودة[1] أنها المرادة فلما ماتت زينب قبلها علمن حينئذ انما أراد الطوْل الذي هو الفضل والكرم وكانت زينب أكثرهن صدقة والعرب تقول فلان أطول يداً من فلان إذا كان أكرم منه وأكثر بذلا قال الشاعر

ولم يك أكثر الفتيان مالاً ولكن كان أطولهم ذراعاً

ويروى أرحبهم . ومن هذا النوع قوله تبارك وتعالى « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنا على بني إسرائيل » قال قوم معناه من سبب

---

(١) وفي نسخة عائشة

ذلك كما تقول فعلت ذلك من أجلك وقال قوم معناه من جناية ذلك وجريرته يقال أجل عليهم شراً يؤجله أجلا اذا جناه واحتجوا بقول خوّات ابن جُبير الانصاري

وأهل خباءٍ صالح ذات بينهم قد احتربوا في عاجل أنا آجله «١»

وهذا النوع كثير جداً

وأما الاشتراك العارض من قبل اختلاف أحوال الكلمة دون موضوع لفظها فمثل قوله تعالى « ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ » قال قوم مضارّة الكاتب أن يكتب مالم يمل عليه ومضارّة الشهيد أن يشهد بخلاف الشهادة . وقال آخرون مضارتهما ان يمنعا من أشغالهما ويكلفا الكتابة والشهادة فى وقت يشق ذلك فيه عليهما . وانما أوجب هذا الخلاف أن قوله ولا يضار يحتمل أن يكون تقديره ولا يضارر بفتح الراء فيلزم على هذا أن يكون الكاتب والشهيد مفعولا بهما لم يسمّ فاعلهما وهكذا كان يقرأ

---

(١) أى أنا جانيه . قال ابن بَرّي قال أبو عبيدة هو للحُنَوْت قال وقد وجدته في شعر زهير في القصيدة التي أولها .

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله . قال وليس فى رواية الاصمعي وقوله وأهل مخفوض بواو رب عن ابن السِّيرافي ه لسان العرب

ابن مسعود باظهار التضعيف وفتح الراء ويحتمل أن يكون تقديره ولا يضارر بكسر الراء فيلزم على هذا أن يكون الكاتب والشهيد فاعلين وهكذا كان يقرأ ابن عمر باظهار التضعيف وكسر الراء . ومثل هذا قوله تعالى « لا تضارَّ والدةٌ بولدِها ولا مولودٌ له بولدِه »

وأما الاشتراك العارض من قبل تركيب الكلام وبناء بعض الألفاظ على بعض فان منه مايدل على معان مختلفة متضادة ومنه مايدل على معان مختلفة غير متضادة فمن النوع الأول قوله تعالى « وما يُتلى عليكم في الكتاب في يتامَى النّساء اللَّاتي لاتُؤتونهنَّ ما كُتب لهنَّ وترغبونَ أنْ تَنكحُوهنَّ » قال قوم معناه وترغبون في نكاحهن لمالهنَّ وقال آخرون إنما أراد وترغبون عن نكاحهن لدمامتهن وقلة مالهنَّ . وانما أوجب هذا الخلاف أن العرب تقول رغبت عن الشيء اذا زهدت فيه ورغبت في الشيء إذا حرصت عليه فلما ركّب الكلام تركيباً سقط منه حرف الجر احتمل التأويلين المتضادين فصار كقول القائل

ويرغب أن يبني المعاليَ خالد ويرغب أن يرضى صنيع الألائم

فهذا البيت يحتمل أن يكون مدحاً وأن يكون ذماً فان جعلت الرغبة الأولى مقدرة بفي والثانية مقدرة بعن كان مدحاً وان جعلت الأولى مقدرة بعن والثانية مقدرة بفي كان ذماً

ومن هـذا النوع قول عليّ رضي الله عنه . أيها الناس تزعمون أني قتلت عثمان ألا وإن الله قتله وأنا معه . اراد عليّ رضي الله عنه أن الله قتله وسيقتلني معه فعطف أنا على الهاء من قتله وجعل الهاء في معه عائدة على عثمان رضي الله عنه وتأوّله الخوارج على أنه عطف أنا على الضمير الفاعل في قتله أو على موضع المنصوب بإنّ كما تقول إن زيداً قائم وعمرو فترفع عمراً عطفاً على موضع زيد وما عمل فيه وجعلوا الضمير في قوله معه عائداً على الله تعالى . فأوجبوا عليه من هذا اللفظ أنه شارك في قتل عثمان رضى الله عنه ولذلك قال كعب بن جُعيل [1]

إذا سِيلَ عنه حذا شبهةً	وعمَّى الجواب على السائلينا
فليس براض ولا ساخط	ولا في النُّهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساهُ ولا سرَّه	ولا بدّ من بعض ذا أن يكونا

«١» التغلبي شاعر اسلامي مشهور كان في زمن معاوية • وسيل مخفف سئل ومثله ساه في البيت الاخير أى ساءه

وانما قال هذا لان عليا رضى الله عنه كان يقول اذا ذكر له قتل عثمان رضى الله عنه والله ما أمرت ولا نهيت ولا رضيت ولا سخطت ولا سائني ولا سرّني . ونظير هذا الضمير في احتماله التأويلين المتضادين معاً قول خالد[1] بن عبد الله القَسْري على المنبر ان أمير المؤمنين كتب اليّ أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله فأوهم أن الضمير راجع الى علي رضي الله عنه وانما هو عائد الى الآمر له بلعنه ولذلك انكر على خالد ما جاء به من اللفظ المشترك فكان بعد ذلك يصرّح بلعنه بألفاظ لا اشتراك فيها

وهذا النوع من الضمائر كثير في الكلام فمنه قوله سبحانه وتعالى « إليهِ يصعَدُ الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ الصالحُ يرفعه » يجوز أن يكون الضمير الفاعل الذي في يرفعه عائداً على الكلم والضمير المفعول عائداً على العمل فيكون معناه أن الكلم الطيب وهو التوحيد يرفع العمل الصالح لانه لا يصح عمل الا مع ايمان ويجوز أن يكون الضمير الفاعل عائداً على العمل والضمير المفعول عائداً على الكلم فيكون معناه أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب وكلاهما صحيح لأن الايمان قول

(١) كان أمير العراقين زمن هشام بن عبد الملك الأموي

وعقدٌ وعمل لايصح بعضها الا ببعض ولو جعلتَ في هـذه الآية اسم الفاعل مكان الفعل لاختلف اللفظان لان اسم الفاعل يستتر فيه ضمير ماهو له ويظهر ضمير ما ليس له فكان يلزم اذا جعلت الرفع للكلم أن تقول والعمل الصالح رافعه هو واذا جعلت الرفع للعمل قلت والعمل الصالح رافعه فيستتر الضمير الفاعل ولا يظهر كما تقول هند زيد ضاربتـه هي اذا جعلت الضرب لهند لأنه جرى خبراً على غير من هو له فاذا جعلت الضرب لزيد قلت هند زيد ضاربها ولم يحتج الى اظهار الضمير لجريانه خبراً على من هوله ومن هـذا النوع من الضمائر قول زهير

نظرت إليه (١) نظرة فرأيتُه على كلِّ حالٍ مرَّةٍ هو حامِلُه

يجوز أن يكون الحامل هو الغلام والمحمول هو الفرس ويجوز أن يكون الامر بالعكس . ومن هذا النوع من الضمائر قوله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق آدم على صورته ذهب قوم الى أن الهاء عائدة على آدم وقوم إلى أنها عائدة على الله تعالى وسنتكلم على هذا

«١» الضمير يرجع الى الوليد المذكور فى البيت قبله وهو

فَتَبَّعَ آثار الشِّياهِ وَليدُنا كشؤبوب غيث يحفِشُ الأكم وابله

الحديث في موضعه ان شاء الله تعالى

ومن الضمائر المشتركة قول حسان [١]

ظننتم بأن يخفى الذى قد صنعتم وفينا نبيّ عنده الوحي واضعه(٢)

ذهب سيبويه الى أن الهاء من واضعه ترجع الى الوحي وذهب غيره الى أنها راجعة الى النبي صلى الله عليه وسلم وكلا القولين صحيح المعنى فيكون معنى وضع النبي صلى الله عليه وسلم للوحي على قول سيبويه أنه وضعه للناس بأمر الله تعالى فسنّ السنن وفرض الفرائض ورتّب الاشياء مراتبها ويكون معناه على قول غيره أن الوحي يضع عنده ماتصنعون أى يبين له ماترومونه وتدبرونه، ويظهر له ماتخفونه من مكركم وكيدكم

---

(١) هوابو الوليد حسّان بن ثابت بن المنذر الانصاري من بني النجار وأمه الفُرَيْعَة بنت خنس من بني الخزرج والفريعة مصغر فرعة وهي القملة الكبيرة قال ابن قتيبة هو جاهلي اسلامى متقدم الاسلام عاش فى الجاهلية ستين سنة وفي الاسلام ستين سنة فهو من المخضرمين ومات في زمن معاوية رضى الله عنهما

(٢) هذا الشطر في ديوانه المطبوع بتونس هكذا . وفيكم نبي عنده الحكم واضعه . والبيت من قصيدة له يهجو بشير ابن أبيرق الظفري وكان سرق درعي حديد فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

وتزفونه ، فتقدير الكلام على هذا وفينا نبيُّ الوحي واضع ماصنعتم عنده وهذا القول عنـدي أظهر من قول سيبويه ويجوز أن يكون من الوضع الذى هو الاسقاط والاطراح فيكون معناه أن الوحي يسقط الذى تصنعونه ويبطله

ومن هذا النوع المشترك التركيب قوله تعالى « حُرِّمَتْ عليكمْ أُمَّهَاتكم » الآية فان هذه الآية في بعضها خلاف وفى بعضها وفاق فمن قوله « حُرِّمتْ عليكم أُمهاتكم » الى قوله « واخواتُكم من الرَّضَاعة » تحريم مبهم متفق عليه . وقوله تعالى « ورَبَائبكمُ اللاتي في حُجُورِكم من نسائكم » تحريم غير مبهم ووقع قوله تعالى « وأُمَّهاتُ نسائكم » متوسطاً بين التحريمين فجعل قوم امهات النساء من التحريم المبهم وجعله آخرون من التحريم غير المبهم وقالوا اذا تزوج المرأة ولم يدخل بها لم تحرم عليه أمها . وإنما أوجب هذا الخلاف أنه تبارك وتعالى أعاد فى هذه الآية ذكر النساء مرتين ثم قال على اثر ذلك « اللاتي دخلتم بهن » فمن جعل امهات النساء من التحريم المبهم ذهب إلى أن اللاتي صفة للنساء المتصلات بالربائب خاصة دون النساء المتصلات بالامهات ومن جعلهن من التحريم غير المبهم ذهب

إلى أن اللاتي دخلتم بهن صفة للنساء المذكورات فى الموضعين فصار خلاف الفقهاء فى هذه الآية مبنياً على خلاف النحويين فى جمع الصفة وتفريق الموصوف وذلك أن هذا الباب منه ماقد أجمع النحويون على جوازه ومنه ماقد أجمعوا على منعه ومنه ما اختلفوا فيه . فالذى اتفقوا على جوازه أن يتفق الموصوفان فى الاعراب والعامل معاً كقولك مررت بزيد وأخيك العاقلين . والذي اتفقوا على منعه أن يختلف الاعرابان والعاملان معاً كقولك مررت بزيد وهذا ابوك لايجيزون أن يقال العاقلان ولا العاقلين على الصفة لكن على القطع والنصب باضمار أعني او الرفع باضمار مبتدأ كأنه قال هما العاقلان . والذي اختلفوا فى جوازه أن يتفق الاعرابان ويختلف العاملان كقولك مررت بغلام زيد ونزلت على عمرو العاقلين فقوم يجيزون ان يجعلوا العاقلين صفة لزيد وعمرو وقوم يمنعون من ذلك ومذهب من منع من ذلك اقيس لان زيداً جرّ باضافة الغلام اليه وعمراً جرّ بالى فاذا جعلت العاقلين صفة لهما أعملت عاملين مختلفين فى اسم واحد وذلك لايجوز وهو جائز على قياس قول ابي الحسن الاخفش لان العامل فى الموصوف

لايعمل عنده فى صفته وانما تخفض الصفة عنده او تنتصب او ترتفع بالاتباع فلما كانت النساء الاول من قوله « وامهات نسائكم » العامل فيهن الاضافة والنساء الاخر العامل فيهن من اختلف العاملان فوجب أن لايكون اللاتى دخلتم بهن صفة لهما معاً على ماقلناه ولكن من أجازه من الفقهاء يمكنه ان يحتج بشيئين احدهما ان يكون على مذهب من اجاز ذلك من النحويين والآخر ان قوله تعالى اللاتي اسم مبني لايظهر فيه اعراب فيمكن ان يكون منصوبا باضمار اعني اومرفوعا باضمار مبتدا ولو ظهر الاعراب فيه ايضاً لم يمتنع من ان يحمل على الاضمار لا على الصفة فيكون كنحو ما انشده سيبويه من قول الشاعر

امن عمل الجراف أمس وظلمه   وعدوانه أعتبتمونا براسم(١)
أميري عداء ان حبسنا عليهما   بهائم مال أوديا بالبهائم

الا ترى الى قوله اميري عداء لايجوز ان يكون بدلاً

---

(١) الجراف وراسم اسما عاملين يذكر الشاعر ظلمهما ويشكو منهما • واعتبتمونا أى أرضيتمونا والعداء الظلم وأراد ببهائم المال الابل • وأوديا بالبهائم ذهبا بها أى ان حبسنا عليهما الابل ليحصلاها ويأخذا

من الجراف وراسم لاختلاف العاملين ولكنه على اضمار اعني ونحوه . وكذلك قول الراجز

ان بها أكتلَ أو رِزاما خُوَيْرِبَيْنِ ينقُفَانِ الهاما(١)

فخويربين لايجوز أن يكون مردوداً على أكتل ورزام لأنه إنما أوجب أحدهما لدخول أو التي للشك بينهما الاترى انه لايجوز رأيت زيداً أو عمراً منطلقين فهذا ونحوه من التركيب المشترك الذي يحتمل المعنى وضدّه ونظيره من الشعر قوله (٢)

قُبَيِّلَةٌ لايَغدِرون بذمّةٍ ولايظلمون الناس حبة خردل

صدقاتها جارا فذهبا بها ه باختصار من شرح شواهد سيبويه للشنتمري

«١» البيت لرجل من أسد وأكتل ورزام اسما شخصين وخويربين مثنى خويرب مصغر خارب وهو اللص ويقال هو سارق الابل خاصة والصحيح أن كل لص خارب لقوله بعد هذا . لم يتركا لمسلم طعاما . ولقول الآخر . والخارب اللص يحب الخاربا . فجعله شائعاً لكل لص ومعنى ينقفان الهام يستخرجان دماغها وهذا مثل ضربه لعلمها بالسّرق واستخراجهما لاخفى الاشياء وابعدها مراما ه منه ومن لسان العرب

(٢) هذا البيت للنجاشي الحارثي يهجو بني العجلان

الا تراه وقد أخرج الكلام مخرج الهجو ولو لا أن في غير هذا البيت دليلاً على ذلك لكان من الثناء والمدح وكذلك قول الآخر

يَجْزُون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن اساءة أهل السوء احسانا (١)

واما التركيب الدال على معان مختلفة غير متضادة فكقوله تعالي « وما قَتَلُوهُ يَقِيناً » فان قوماً يرون الضمير من قتلوه عائداً الى المسيح صلى الله عليه وسلم وقوماً يرونه عائداً الى العلم المذكور في قوله « مالَهُمْ به مِنْ علمٍ إلا اتباعَ الظنّ » فيجملونه من قول العرب قتلت الشيء علماً

ومن هذا النوع قوله تعالى « يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذينَ من قَبْلِكُمْ لعلَّكم تتقون » فان الناس اختلفوا في هذا التشبيه من أين وقع فذهب قوم الى أن التشبيه انما وقع في عدد الأيام واحتجوا بحديث رووه أن النصارى كان فرض عليهم في الانجيل صوم ثلاثين يوماً

---

(١) البيت من قصيدة في اول الحماسة لقُرَيْط بن أُنَيْف البَلْعَنْبَرِي واولها

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذُهْلِ بن شَيْبَانا

كالتي فرضت علينا وان ملوكهم زادوا فيها تطوعاً حتى صيّروها خمسين وذهب آخرون الى أن التشبيه انما وقع في الفرض لا في عدد الايام وهذا القول هو الصحيح وان كان القولان جائزين في كلام العرب ألا ترى أنك اذا قلت أعطيت زيداً كما أعطيت عمراً احتمل أن تريد تساوي العطيتين واحتمل أن تريد تساوي الاعطائين وان كنت أعطيت أحدهما خلاف ما أعطيت الآخر وهذا يكثر ان تتبعناه وقد أوردنا منه جملة تنبه على الغرض الذي قصدناه وبالله التوفيق

الباب الثاني

﴿ في الخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز ﴾

قد ذهب قوم الى ابطال المجاز وذهب قوم الى اثباته وانما كلامنا فيه على مذهب من أثبته لأنه الصحيح الذي لا يجوز غيره لقوله تعالى «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ» وقوله تعالى « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »ولا وجه لاطالة القول في الرد على من أنكره لأنا لم نقصد في كتابنا هذا مناقضة أحد

من أهل المقالات وإنما قصدنا الكلام في أصول الخلاف فأقول وبالله التوفيق

إن المجاز ثلاثة أنواع نوع يعرض في موضوع اللفظة ونوع يعرض في أحوالها المختلفة عليها من اعراب وغيره ونوع يعرض في التركيب وبناء بعض الالفاظ على بعض .

فمثال النوع الاول الميزان فانه قد يكون المقدار الذي قد تعارفه الناس في معاملاتهم ويكون العدل تقول العرب وازنتُ بين الشيئين اذا عدلت بينهما ورجل وازن اذا كانت له حصافة ومعرفة قال كُثَيِّر [1]

رأتني كأشلاء اللِّجام وبعلُها ... منَ القوم أبزَى بادنٌ متباطنُ

فإن أكُ معروقَ العِظام فإنّني ... إذا ماوَزَنْتِ القومَ بالقومِ وازنُ

ويقال العَروض ميزان الشعر والنحو ميزان الكلام .

ويروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عرض عليه عود غناء وقيل له ما هذا فقال هذا هو الميزان الرومي أراد أنه

---

(١) هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي الشاعر المشهور أحد عشاق العرب توفي سنة ماية وخمسة من الهجرة . والأشلاء القطع . وأبزى أي عظيم الجسم . ومعروق العظام أي ليس فيها لحم

ميزان الغناء. وقال بعض الشعراء يرثي عمر بن عبد العزيز

قد غيَّب الدافنون اللَّحد إذ دفنوا   بدَيْر سِمْعَان قِسطاسَ الموازين

فشبه عمر رضي الله عنه لعدله بالميزان

ومن ذلك السلسلة فان العرب تستعملها حقيقة وتستعملها مجازاً على ثلاثة أوجه (الاول) أن تريد بها الاجبار على الامر والاكراه فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عجبت لقوم يقادون الى الجنة بالسلاسل (الثانى) أن يريدوا بها المنع من الشيء والكف عنه كقول أبي خراش[1]

فليس كعهد الدار يا أمَّ مالك   ولكن احاطت بالرقاب السلاسل

يريد بالسلاسل حدود الاسلام وموانعه التي كفت الأيدي الغاشمة عن غشمها ومنعت من سفك الدماء الا بحقها. ومن هذا قوله تعالى « إنَّا جعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فهِيَ إلَي الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ » (والثالث) أن يريدوا بها ما تتابع بعضه في اثر بعض واتصل كقولهم تسلسل الحديث وتسلسل الماء

(١) هو خويلد بن مرة الهذلي شاعر مفلق مخضرم تابعيّ وكان من فرسان العرب وفتاكهم أسلم وهو شيخ كبير وحسن اسلامه مات في زمن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

وماء سلسل وسلسال وسلاسل قال أوس بن حجر (١)

وأشربنيه الهالكيّ كأنه   غدير جرت فى متنه الريح سلسل

وقالوا سلاسل البرق وسلاسل الرمل قال ذو الرمة

لأدمانة من وحش بين سُويقة   وبين الجبال العُفر ذات السلاسل (٢)

ومن هذا النوع قولهم فلان على الجبل وعلى الدابة أي فوق كل واحد منهما فهذا حقيقة ثم يقولون علاه دَين وفلان أمير على البصرة يريدون بذلك القهر والغلبة. وكذلك قولهم فلان في الدار وفى البيت ثم يقولون أنا فى حاجتك وانما يريدون أن حاجتك قد شغلتني فلم تدع فىّ فضلا لغيرها فشبهوا ذلك بالمكان الذى يحيط بالمتمكن من جهاته الست

---

(١) من شعراء تميم في الجاهلية يصف سيفاً • وأشربنيه أى أعطانيه ويروى وأشربنيها فتكون الهاء للدروع قال ابن بري وهو الصواب لأنه يصف درعاً لاسيفاً وقبله

وبيضاء زَغْف نَثْلة سُلَمية   لها رفرف فوق الأنامل مُرسَلُ

والزغف الدرع اللينة • وسلمية من صنع سليمان بن داود عليهما السلام والهالكي الحداد وأراد به ههنا الصيقل هـ من لسان العرب بزيادة

(٢) الأدمانة الظبية • وسويقة موضع • والجبال العفر هى الرمال العفر المستطيلة والعفرة غبرة في حمرة

فلا يدع منه فضلا لغيره وهذا كثير جداً في اللغة يكثر ان تتبعناه

فمنه قوله تعالى فأتى الله بنيانهم من القواعد ذهب قوم الى أن البنيان هاهنا حقيقة وأنه أراد الصرح الذي بناه هامان لفرعون وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ » وذهب آخرون الى أنه كلام خرج مخرج التمثيل والتشبيه قالوا ومعناه أن ما بنوه من مكرهم وراموا إثباته وتأصيله أبطله الله تعالى وصرفه عليهم فكانوا بمنزلة من بنى بنياناً يتحصن به من المهالك فسقط عليه فقتله وشبهوه بقوله تعالى « ولا يَحِيقُ المَكْرُ السيِّءُ إلا بأهله » والقولان جميعاً جائزان على مذهب العرب ألا تراهم يقولون بنى فلان شرفاً وبنى مجداً وليس هناك بنيان في الحقيقة قال عبدة[1] بن الطيب

فما كان قيس هُلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

ويشبه هذا المعنى الذي ذهبوا اليه قول ابن أحمر[2]

---

(١) هو تابعي مخضرم يرثي قيس بن عاصم التميمي المنقري الصحابي سيد أهل الوبر من تميم

(٢) هو عمرو بن أحمر الباهلي وهو شاعر فصيح كان يتقدم شعراء

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريّاً ومن جال الطويّ رماني

ويروى ومن جول الطوىّ والجال والجول ناحية البئر من أسفلها الى أعلاها ومعناه رماني بأمر رجع عليه مكروهه فكأنه رماني من قعر البئر فرجعت رميته عليه فأهلكته هكذا رواه قوم وفسروه . والمعروف ومن أجل الطوىّ وانما كان يخاصمه فى بئر يدعيها كل واحد منهما فقال رماني بأمر أنا ووالدى بريئان منه من أجل ما بيني وبينه من الخصام فى الطوىّ وعلى هذا يدل الشعر لأن قبله

فلما رأى سفيان أن قد عزلته عن الماء مرمى الحايم الوخدان

ومن هذا النوع قوله عز وجل « وإنْ كانَ مكرُهم لِتَزُولَ منهُ الجبَال » قوم يرون الجبال ههنا حقيقة وأنه أراد بذلك ما كان من صعود نمرود بن كنعان فى التابوت نحو السماء فلما كرّ منحدراً نحو الارض ظنته الجبال أمراً من عند الله تعالى فكادت تزول من مواضعها وقوم آخرون يقولون الجبال ههنا تمثيل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم أى أنهم مكروا

زمانه وهو مخضرم توفي على عهد عثمان بعد ان بلغ سناً عالية . والطوى فى البيت اسم للبئر

به ليزيلوا أمره الذي قد رسخ رسوخ الجبال التي لا يستطاع على ازالتها من مواضعها والعرب تشبه الشيء الثابت بالجبل الشامخ والصخرة الراسية ألا ترى الى قول زهير . الى باذخ يعلو على من يطاوله .[١] وقول السموأل بن عاديا[٢]

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل(٢)
رسا أصله تحت الثرى وسما به الى النجم فرع لا ينال طويل

وقال الاعشى

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها واوهى قرنه الوعل (٢)

فهذا كلام العرب . ومن هذا الباب قوله تعالى « يا بَنِي آدم قَدْ أَنْزَلْنَا عليكم لِبَاساً يُوارِي سَوْآتِكم » ومعلوم

---

(١) صدره . حذيفة ينميه وبدرٌ كلاهما . الى باذخ الخ

(٢) البيتان من قصيدته الحماسية المشهورة التي أولها

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداءٍ يرتديه جميل

والمراد بالجبل في قوله لنا جبل العزّ والسمو أى من دخل فى جوارنا امتنع على طلاّبه هـ

(٣) هذا البيت من قصيدته التي أولها

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

الى أن قال

ان الله تعالى لم ينزل من السماء ملابس تلبس وانما تأويله والله أعلم أنه أنزل المطر فنبت عنه النبات ثم رعته البهائم فصار صوفاً وشعراً ووبراً على أبدانها ونبت عنه القطن والكتان فاتخذت من ذلك أصناف الملابس فسمي المطر لباساً اذ كان سبب ذلك على مذهب العرب فى تسمية الشئ باسم الشئ اذا كان منه بسبب وهذا يسميه أصحاب المعانى التدريج . ونحوه قولهم للمطر سماء لأنه ينزل من السماء وللنبت ندى لأنه عن الندى يكون وللشحم ندى لأنه عن النبت يكون قال ابن أحمر

كثور العداب الفرد يضربه الندى تعلَّى الندى فى متنه وتحدرا (١)

وقال معاوية بن مالك معوّد الحكماء(٢)

ألست منهياً عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ماأطَّت الابل

كناطح صخرة الخ وقوله أطت الابل من أطيط الابل وهو نقيض جلودها عند الحكة والنقيض صوت النسع والرحل والمفاصل والاضلاع وقوله ليفلقها أى يشقها ويروى ليوهنها أى يزعزعها وقوله فلم يضرها اى يضرها من ضار يضير ضيراً اه من شواهد العينى

(١) أراد بالندى الاول فى البيت الغيث والمطر وبالندى الثانى الشحم

(٢) سمي معوّد الحكماء لقوله في هذه القصيدة التي منها هذا البيت

أعوّد مثلها الحكماء بعدي اذا ما الحق في الحدَثان نابا

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

ونحوه قول الراجز

الحمد لله العزيز المنان صار الثريد في رؤس العيدان

يريد السنبل . ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا ثلث الليل الأخير فيقول هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفرله هل من تائب فأتوب عليه . جعلته المجسمة نزولا على الحقيقة تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً . وقد أجمع العارفون الله تعالى على أنه لا ينتقل لأن الانتقال من صفة المحدثات ولهذا الحديث تأويلان صحيحان لا يقتضيان شيئاً من التشبيه (أحدهما) أشار اليه مالك بن أنس رضي الله عنه وقد سئل عن هذا الحديث فقال ينزل أمره فى كل سحر فأما هو عز وجل فانه دائم لا يزول وسئل عنه الاوزاعي فقال يفعل الله ما يشاء وهذا تلويح يحتاج الى تصريح وخفي اشارة يحتاج الى بين عبارة . وحقيقة الذي ذهبا اليه رحمهما الله تعالى أن العرب تنسب الفعل الى من أمر به كما تنسبه الى من فعله وباشره بنفسه فيقولون كتب الامير لفلان كتاباً وقطع الامير يد اللص وضرب

السلطان فلاناً الف سوط وهو لم يباشر شيئاً من ذلك بنفسه انما أمر به ولأجل هذا احتيج الى التأكيد الموضوع في الكلام فقيل جاء زيد نفسه ورأيت زيداً نفسه فمعناه على هذا أن الله تعالى يأمر ملكا بالنزول الى السماء الدنيا فينادي بأمره وقد تقول العرب جاء فلان اذا جاء كتابه ووصيته ويقولون للرجل أنت ضربت زيداً وهو لم يضرب به اذا كان قدرضي بذلك وشايع عليه. قال الله تعالى « فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ » والمخاطبون بها لم يقتلوا نبياً ولكنهم لما رضوا بذلك وتولوا قتلة الانبياء وشايعوهم على فعلهم نسب الفعل اليهم وان كانوا لم يباشروه.

وعلى هذا يتناول قوله تعالى « فأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ » فهذا تأويل كما تراه صحيح جار على فصيح كلام العرب في محاوراتها والمتعارف من أساليبها ومخاطباتها وهو شرح ما أراده مالك والأوزاعي رحمهما الله.

ومما يقوّي هذا التأويل ويشهد لصحته أن بعض أهل الحديث رواه ينزل الله بضم الياء وهذا واضح

(والتأويل الثاني) أن العرب تستعمل النزول على وجهين أحدهما حقيقة والآخر مجاز واستعارة فأما الحقيقة فانحدار الشيء من

علو الى أسفل كقوله تعالى « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ من جبالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ » وكقول امرئ القيس

هو المنزل الآلاف من جوّ ناعط   بني أسد حزناً من الارض أوعرا (١)

ـ وأما الاستعارة والمجاز فعلى أربعة أوجه (أحدها) الاقبال على الشيء بعد الاعراض عنه والمقاربة بعد المباعدة يقال نزل البائع في سلعته اذا قارب المشتري فيها بعد مباعدته وأمكنه منها بعد منعه ويقال نزل فلان عن أهله أي تركها وأقبل على غيرها ومنه قول الشاعر(٢)

---

(١) البيت من قصيدته التي أولها

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا الخ والضمير في قوله هو المنزل يرجع الى قوله قبله

عليها فتىً لم تحمل الارض مثله   أبرّ بميثاق واوفى واصبرا

وعنى بقوله فتى نفسه والآلاف جمع آلف وناعط جبل باليمن في ارض همدان . والحزن الوعر من الارض . والمعنى أنه أنزل بني أسد على كثرتهم في هذا الجبل تحصناً منه لئلا يدركهم ه من شرح ديوان امرئ القيس للوزير ابي بكر بن عاصم

(٢) هو حطان بن المعلّى من شعراء الحماسة وهذا البيت مطلع قصيدة له وفيها يقول

أنزلني الدهر على حكمه من شاهق عال الى خفض

أي جعلني أقارب من كنت أباعده وأقبل على من كنت أعرض عنه فيكون معنى الحديث على هذا أن العبد في هذا الوقت أقرب الى رحمة الله منه في غيره من الأوقات وأن البارئ سبحانه وتعالى يقبل على عباده بالتحنن والعطف في هذا الوقت بما يلقيه في قلوبهم من التنبيه والتذكير الباعثين لهم على الطاعة والجد في العمل فهذا تأويل أيضاً ممكن صحيح . وأما الاقسام الباقية من معنى النزول فلا مدخل لها في هذا الحديث وانما نذكرها لتوفية معنى النزول ولأنها مما يحتاج اليه في غير هذا الحديث (فمنها) ما يراد به ترتيب الاشياء ووضعها مواضعها اللائقة بها كقوله تعالى « ونزّلناه تنزيلا » أي رتبناه مراتبه ووضعناه مواضعه ومن ذلك قولهم نزل فلان عند الملك منزلة حسنة أو قبيحة ومنه قول الشاعر (١)

وانما اولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الارض

لو هبّت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

(١) هو سُديف مولى بنى هاشم يخاطب أبا العباس السفاح ويحرضه على قتل أسارى بنى أمية

أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والاتعاس

(ومنها) ما يراد به الاعلام والقول كقوله تعالى «وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ» أي أقول مثل ما قال الله وأعلم بمثل ما أعلم ومن هذا إنزال الوحي انما معناه أن جبريل تلقاه عن الله سبحانه وتعالى وأدّاه الى محمد صلى الله عليه وسلم وهذا راجع الي معنى الاقبال الذي قدمناه (ومنها) مايراد به الانحطاط عن المرتبة والذلة كقولهم نزلت منزلة فلان عند الملك أي انحطت ولا يجوز أن يكون قوله أنزلني الدهر على حكمه من هذا المعنى . وقد تستعمل العرب النزول في النماء والزيادة وهو ضد ما ذكرناه قبل هذا فيقولون طعام له نزل أي بركة ونماء وأرض نزلة اذا كانت كثيرة الكلأ وتركت القوم على نزلاتهم اذا كانوا في خصب وحسن حال وقد يستعملونه أيضاً على معنى آخر يقولون نزل القوم اذا أتوا منى ويقال لمنى المنازل قال الشاعر (١)

أنازلة يا أسمَ ام غير نازله   أبيني لنا يا أسم ما انت فاعله

---

(١) هو عامر بن الطُّفيل العامري وصدر البيت في لسان العرب هكذا . أنازلة أسماء أم غير نازله الخ وهو الصحيح

فجميع مواضع هذه الكلمة سبعة فهذه وجوه النزول
في كلام العرب

ومما غلطت فيه المجسمة أيضاً قوله تعالى « ٱللَّهُ نور
السموات والارض » فتوهموا أن ربهم نور تعالى الله عن قول
الجاهلين علواً كبيراً وانما المعنى هادي أهل السموات والارض
والعرب تسمي كلَّ ما جلا الشبهات وأزال الالتباس وأوضح
الحق نوراً قال الله تعالى « وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً » يعنى القرآن
وعلى هذا المعنى سمى نبيه صلى الله عليه وسلم سراجاً منيراً
فقال عزَّ من قائل « وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً »
وقال العباس (١) بن عبد المطلب

وأنت لما ظهرت أشرقت الا * رض وضاءت بنورك الأفق

وعلى هذا مجرى كلام العرب قال أمرؤ القيس

أقرَّ حشا امرئ القيس بن حجر بنو تَيْم مصابيح الظلام (٢)

---

(١) هو عم النبي صلى الله عليه وسلم وهذا البيت من قصيدة له يمدحه بها عند رجوعه صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك

(٢) هذا البيت من أبيات له يمدح بها المعلَّى أحد بني تيم وهم تيم طي وكان أجاره من المنذر بن ماء السماء وأولها

كأني اذ نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام

وقال النابغة (١)

لا يبعد الله جيرانا تركتهم   مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم (٢)

وقال الآخر

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم   مثل النجوم التي يسري بها الساري (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم (٤)

البواذخ جمع باذخ وهو الطويل من الجبال وشمام جبل بالعالية ولهذا الجبل رأسان يسميان ابنيْ شمام قال لبيد

فهل نُبِّئْتَ عن أخوين داما   على الاحداث الا ابني شمام

وقول امرئ القيس مصابيح الظلام إما لحسن وجوههم أو لانهم يكشفون الامور المبهمة بصحة رأيهم كما تجلو المصابيح الظلام وقد شهر هؤلاء القوم بقول امرئ القيس حتى سموا مصابيح الظلام ه من شرح ديوان امرئ القيس للوزير أبي بكر ولسان العرب

(١) الذبياني يمدح بني غسان حين ارتحل من عندهم راجعاً .

(٢) ويروى طخية الظلم وطحية الظلم والطخية الظلمة يريد انهم يستضاء بآرائهم في المشكلات كما يستضاء بالمصباح في الظلام قال الوزير ابو بكر شارح ديوانه ويحتمل ان يكون شبههم بالمصابيح في حسن وجوههم ه

(٣) هذا البيت من ابيات الحماسة وقائله العرندس احد بني بكر بن كلاب يمدح بني عمرو الغنويين وهو من أبيات اولها

هينون لينون أيسارٌ ذوو كرم   سوّاس مكرمة أبناء أيسار

(٤) ذكر الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البرّ القرطبي في كتابه

اهتديتم . ولو منحت المجسمة طرفاً من التوفيق، وتأملت الآية بعين التحقيق، لوجدت فيها ما يبطل دعواهم دون تكلف تأويل، ومن غير طلب دليل، لأنه قال الله تعالى بعقب الآية «وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ للنَّاسِ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم» فأخبرنا أن ما ذكره في الآية العزيزة من النور والمشكاة والمصباح والزجاجة والزيتونة والشجرة أمثال مضروبة يعقلها عن الله تعالى من وفق لفهمها وكشفت له الحجب عن مكنون سرها وعلمها كما قال تعالى «وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا للناس وما يَعْقِلُها الا العالمون»

فان قلت فكيف يقع هذا التمثيل وما المراد به ؟ فالجواب أنه شبه صدر المؤمن بالمشكاة وقلبه بالزجاجة ونور الهدى الذى يضعه في قلبه بالمصباح وشبه مادة الهدى المنبعثة من قبل

جامع بيان العلم وفضله أن هذا الحديث غير صحيح وذكر الطرق التى رُوى هذا الحديث منها وبيّن فسادها . وذكر مثل ذلك الامام ابو محمد ابن حزم الاندلسى فى كتاب الاحكام . وقال المزني في هذا الحديث إن صح هذا الخبر فمعناه فيما نقلوا عن الرسول وشهدوا به عليه فكلهم ثقة مؤتمن على ما جاء به لا يجوز عندي غير هذا وأما ما قالوا فيه برأيهم فلو كان عند أنفسهم كذلك ما خطّأ بعضهم بعضاً ولا أنكر بعضهم على بعض ولا رجع منهم أحد إلى قول صاحبه فتدبر ه

الرسول صلى الله عليه وسلم التي تزيد في بصائر المؤمنين وتحفظ نور الايمان عليهم وتمنعه من أن يغلب عليه الشك فيطمسه بمادة الزيت التي تمد المصباح لئلا يطفأ نوره وشبه النبي صلى الله عليه وسلم بالزيتونة إذ كان الهدى إنما ينبعث من قبله كانبعاث الزيت من الزيتون وجعل الزيتونة لا شرقية ولا غربية لان ظهوره ومبعثه صلى الله عليه وسلم إنما كان بمكة ومكة متوسطة بين المشرق والمغرب . فهذا كلام كما ترى قد خرج على أحسن مخارج الكلام وتشبيه جاء على أبدع وجوه التشبيه فهذا ونحوه من الحقيقة والمجاز العارضين في موضوع الكلمة

وأما الحقيقة والمجاز العارضان فيها من قبل أحوالها فانهما كثيران أيضا ككثرة النوع الاول فمن ذلك قولهم مات زيد فيرفعونه كما يرفعون قولهم أمات الله زيدا وأحدهما حقيقة والآخر مجاز ومنه قوله تعالى «فإذا عَزَمَ الأمرُ» والامر لا يعزم إنما يعزم عليه قال النابغة . وإن الدين قد عزما [1] . ويقولون

(١) صدر هذه القطعة قوله

حياكِ ربي فإنا لا يحل لنا لهو النساء وان الدين قد عزما

قال أبو عبيدة الدين التقوى يقول قد عزمنا على التقوى فهو

أعطي ثوب زيداً وانما الوجه أعطي زيد ثوبا لان زيداً هو الآخذ للثوب والمتناول له . وولد له ستون عاما والمعنى ولد له الاولاد في ستين عاماً . ونحوه قوله تعالى « بلْ مكرُ الليل والنّهار » والمراد بل مكركم في الليل والنهار وأنشد سيبويه

أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في بطنِ منحوتٍ من الساج (١)

وتقول العرب نهارك صائم وليلك قائم قال جرير

لقد لمتِنا يا أم غيلان في السُّرى ونمتِ وما ليل المطيّ بنائم (٢)

وقال حميد بن ثور الهلالي (٣)

ومطوية الاقراب أما نهارها فسبت وأما ليلها فذميـل

وأما المجاز والحقيقة العارضان من طريق التركيب وبناء

الذي يحجزني عن اللهو والزنا اهـ من شرح ديوانه

(١) قائل هذا البيت يصف محبوساً يقيد بالنهار ويغلّ في سلسلة ويوضع بالليل في خشبة منحوتة والساج شجر معروف من شجر الهند هـ من شرح شواهد سيبويه للشنتمري بتصرف

(٢) المعنى وما المطيّ بنائم في الليل

(٣) الصحابي رضي الله عنه يصف ناقة . والاقراب جمع قرب وهي الخاصرة والسبت السير السريع والذميل ضرب من السير

بعض الألفاظ على بعض فنحو الامر يرد بصيغة الخبر والخبر يرد بصيغة الامر والايجاب يرد بصيغة النفي والنفي يرد بصيغة الايجاب والواجب يرد بصيغة الممكن أو الممتنع والممكن والممتنع يردان بصيغة الواجب والمدح يرد بصيغة الذم والذم يرد بصيغة المدح والتقليل يرد بصيغة التكثير والتكثير يرد بصيغة التقليل، ونحو ذلك من أساليب الكلام التي لا يقف عليها إلا من تحقق بعلم اللسان وكل نوع من هذه مقصود به غرض من أغراض البيان ونحن نذكر من كل نوع من هذه الانواع أمثلة تشهد بصحة ما قلناه ليُحتَذَى فيما لم نذكره على ما ذكرناه ان شاء الله تعالى

أما الامر الوارد بصيغة الخبر فكقولك حسبك درهم فان صيغة هذا الكلام كصيغة قولك أخوك منطلق وأبوك زيد ومعناه معنى الامر لان تقديره ليكفك درهم أو اكتف بدرهم قال امرؤ القيس • وحسبك من غنى شبعٌ وريُّ (١)

ومن هذا قولهم في الدعاء غفر الله لزيد ورحمك الله

(١) صدر هذا الشطر قوله • فتوسع اهلها أقطاً وسمناً • وحسبك الخ

وسلام عليك ومنه قوله تعالى « والوالداتُ يُرضِعنَ أولادَهن حَوْلينِ كَاملين » وانما المعنى لترضع الوالدت أولادهن لانه لم يخبرنا وانما أمرنا

وأما الخبر الوارد بصيغة الامر فكقولهم في التعجب أحسن بزيد فان صيغته كصيغة قولك أحسن الى زيد وأحدهما خبر والآخر أمر لان معنى أحسن بزيد ما أحسنَ زيداً فانما أنت مخبر لا آمر ومكان الباء وما عملت فيه رفع ومكان الى وما عملت فيه نصب ومنه قوله تعالى «أسْمِعْ بِهِمْ وأبْصِرْ» أي ما أسمعهم وأبصرهم

— وأما الايجاب الوارد بصيغة النفي فكقولك مازال زيد عالما فان صيغته كصيغة قولك ما كان زيد عالماً والاول ايجاب والثاني نفي فاذا أدخلت على هذه الجملة لاَ التي للايجاب فقلت مازال زيد الا عالماً صارت صيغته صيغة الموجب ومعناه معنى المنفي والعلة

والاقط شيء مثل الجبن يتخذ من اللبن المخيض . يقول هي قوام لاهلها ويكفي من الغنى أن يشبع الانسان ويروى . قال الوزير أبو بكر وبهذا البيت أنكر الاصمعي أن يكون الشعر لامرىء القيس لانه قد ذكر عن نفسه أنه لايقتصر الا على حصول الملك اه

فى ذلك أن قولك زال زيد عالما لو كان مما يستعمل لكان معناه النفي لان معناه زال عن العلم وانتفى منه فاذا أدخلت عليه ما النافية رجع ايجابا لان النفي الثانى يبطل النفى الاول فاذا أدخلت الا ابطل النفى الثانى الذى اوجبته ماوعاد النفى الاول الى حاله فصار قولك مازال زيد الا عالما بمنزلة قولك زال زيد عالما فمن النحويين من يرى أن قولك مازل زيد الا عالما إنما امتنع من الجواز لان دخول ما في صدر المسئلة يوجب له العلم ودخول الا في آخرها ينفي عنه العلم فيصير مثبتاً نافياً للخبر في حال واحدة . ومنهم من يقول انما استحال لان دخول الا عليه يبطل ما لانها مناقضة لها فكأنك قلت زال زيد عالما وهذا غير جائز لان العرب لم تستعمل زال الداخلة على الابتداء والخبر الا مع ما . ومنهم من يقول إنما استحال لان قولك مازال زيد عالما كلام موجب وإن كان بصورة المنفي فلما كان كذلك لم يجز دخول الا عليه لان إلا انما وضعت لتوجب ما كان منفياً قبل دخولها فاذا كان الكلام موجباً بنفسه استغني عنها

ومن ظريف هذا النوع قول الفرزدق[١]

بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم ولم تكثر القتلى بها حين سلت

قال أصحاب المعاني معناه لم يشيموا سيوفهم الا وقد كثرت القتلى بها حين سلت فمعناه كما ترى ايجاب وصيغته وظاهره نفي وانما أوجب هذا لان قوله ولم تكثر القتلى ليس بجملة منقطعة من الجملة التي قبلها معطوفة عليها على حد عطف الجمل على الجمل وانما هى فى موضع نصب على الحال من السيوف وتقدير الكلام لم يشيموا سيوفهم غير كثيرة القتلى بها حين سلت فصار بمنزلة قولك لم يجئ زيد ولم يركب فرسه اذا جعلت قولك ولم يركب فرسه في موضع الحال من زيد تقديره لم يجئ زيد غير راكب فرسه فمحصول معناه أنه جاء راكباً فرسه فظاهره نفي ومعناه ايجاب . وقد يجوز فى المسئلة أن تريد أنه لم يجئ ولم يركب فتنفي الفعلين معا وتجعلها جملتين ليست احديهما متعلقة بالاخرى الا على جهة العطف فقط

وأما النفي الوارد بصورة الايجاب فنحو قولهم لو جائني

«١» يصف سيوفاً . وقوله يشيموا أي يغمدوا وسيوفهم اظهار في محل الاضمار

زيد لا كرمته فصورته صورة كلام موجب لانه ليس فيه أداة من أدوات النفي وهو منفي في المعنى لانه لم يقع المجيء ولا الإكرام فاذا دخل عليه حرف النفي فقيل لو لم يشتمني زيد لم أضربه صارت صورته صورة المنفي ومعناه معنى الموجب ومن أجل هذا قال النحويون في نحو قول امرئ القيس

فلو أن ما أسعى لادنى معيشة / كفاني ولم أطلب قليل من المال(١)

ان نصب القليل هنا محال لانه لو نصبه لاوجب أنه قد طلب قليلا من المال وهذا خلاف ما أراده الشاعر ألا تراه يقول بعد هذا

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

فأخبر ببعد همته وعلوّها وأنه انما يطلب الملك والرياسة الا ترى أن النحويين قد جعلوا قوله ولم أطلب قليلا من المال بالنصب ايجابا وظاهره نفي وانما عرض هذا من قبل دخول لو في أول البيت وقد أعلمتك أن ايجابها نفي ونفيها ايجاب . ومن هذا قوله عز وجل « ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هُداها »

«١» هذا البيت والذي بعده من قصيدته التي أولها

ألا عِمْ صباحاً ايها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

«ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً»

واما ورود الواجب بصورة الممكن فقوله تعالى «فعسى الله أن يأتي بالفتح» وقوله «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا» وهذا واجب ثابت وصورته صورة الممكن المشكوك فيه والعرب تفعل هذا تحريراً للمعاني واحتياطا عليها ومنه قول الشاعر

لعلي ان مالت بي الريح ميلة   على ابن أبي زبّان أن يتندما

فأخرج كلامه مخرج الممكن وانما يريد أن يتندم لامحالة

واما ورود الممتنع بصورة الممكن فكقول امرىء القيس

وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة   لعل منايانا تحولن أبؤسا(١)

وتحول المنايا أبؤساً من الممتنع الذي لا يمكن وقد جعله كما ترى في صورة الممكن على العلم منه أنه ليس كذلك تعللا بذلك

«١» الشطر الاخير في ديوانه المشروح هكذا. فيالك من نعمى تحولن ابؤسا. والذي هنا هو الرواية الصحيحة المشهورة

قال الشارح أبو بكر قوله وبدلت قرحاً دامياً الخ يريد ما ناله في جسمه من لبس الحلة المسمومة التي أرسلها اليه قيصر من بلاد الروم وكان جسمه قد تقطع بعد لبسها وهذا البيت من قصيدته التي أولها

ألمّا على الربع القديم بعسعسا   كأني أنادي أو أكلم أخرسا

واستراحة مما كان فيه من عظيم البلاء . ونحوه قول كعب [١] بن سعد الغنوي يرثي أخاه

وداع دعا يا من يجيب الى الندى   فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت أدع أخرى وارفع الصوت جهرة   لعل أبي المغوار منك قريب
يجبك كما قد كان يفعل انه   [٢] مجيب لابواب العلاء طوب

وقال النابغة [٣]

فان تحي َ لا أملل حياتي وان تمت   فما في حياتي بعد موتك طائل

ومن هذا قول الرجل المحرَّق لبنيه اذا أنا مت فاحرقوني ثم اذروا رمادي في اليم فلعلي أضل الله فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابا شديداً . ألا ترى أنه أخرج ما قد تحقق أنه لا يكون مخرج ما يرجى أن يكون تعللا بذلك واستراحة اليه كما فعل امرؤ القيس حين اشتد به البلاء في قوله . لعل منايانا تحولن

«١» شاعر اسلامي مفلق وهو أحد السبعة أصحاب عيون المراثي المذكورين في جمهرة أشعار العرب . وأول هذه المرثيه قوله

تقول ابنة العبسيّ قد شبت بعدنا   وكل امرئ بعد الشباب يشيب

«٢» هذا الشطر في الجمهرة هكذا . بأمثالها رحب الذراع أريب

«٣» يرثي النعمان بن الحارث الغساني من قصيدة أولها

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل   وكيف تصابي المرء والشيب شامل

ابؤسا . وهو لا يشك في أن هذا الذي رجاه ممتنع ومن أبين ما في ذلك قول الآخر

أخادع نفسي بالاماني تعللا ... على العلم مني أنها ليس تنفع

واما قوله فوالله لئن قدر الله تعالى عليّ ليعذبني عذابا شديدا فمعناه فوالله لئن ضيق الله عليّ طرق الخلاص ليعذبني وليس يشك في قدرة الله تعالى ولو شك في قدرته لكان كافراً وانما هو كقوله تعالى « فظَنَّ أنْ لنْ نَقْدِرَ عليْه » وقوله « وَمَنْ قُدِرَ عليه رزقه » أي ضيق ويجوز أن يكون من القدر الذي هو القضاء فيكون معناه فوالله لئن قدر الله علي العذاب فحذف المفعول اختصارا كما قال النابغة الجعدي [1]

حتى لحقنا بهم تُعدي فوارسنا ... كأننا رعن قُفٍّ يرفع الآلا

أراد تعدي فوارسنا الخيل . وقد يجوز أن يكون قوله فوالله لئن قدر الله عليّ من القدرة على الشيء . فان قيل كيف يصح هذا ودخول الشرط عليه قد جعله من حيز الممكن الذي

«١» صحابي جليل من المعمرين المخضرمين واختلف في اسمه فقيل قيس بن عبد الله وقيل حسان بن قيس . ورعن قف أي رأس جبل ويرفع الآلا أي السراب

يجوز أن يكون ويجوز أن لا يكون وهذه خاصة الشرط ألا ترى أنك إذا قلت إن جائني زيد أكرمته فممكن أن يقع ذلك وممكن أن لا يقع وهذا شك محض في قدرة الله عز وجل . والجواب ان العرب قد تستعمل إن التي للشرط بمعنى إذا كما تستعمل إذا بمعنى ان . وإذا تقع على الشيء الذي لا يشك في كونه كقوله اذا كان الليل فأتني وكون الليل لا بد منه وكقوله تعالى « إذا السماءُ انفطرَت » فمعناه على هذا فوالله إذا قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً شديداً وانما جاز وقوع إن التي للشرط موقع اذا الزمانية لأن كل واحدة منهما تحتاج الى جواب والشيئان اذا تضارعا جاز أن يقع كل واحد منهما موقع صاحبه فمما وقعت فيه ان موقع اذا قوله تعالى « لتَدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنين » وقول النبي صلى الله عليه وسلم حين وقف على القبور وإنا ان شاء الله بكم لاحقون . يريد اذا شاء الله ومنه قول الشاعر

فإلا يكن جسمي طويلا فإنني له بالفعال الصالحات وصول (١)

معناه فاذا لم يكن جسمي طويلا فاني أطيله بالأفعال

(١) البيت لرجل من الفزاريين وهو في الحماسة هكذا

الا يكن عظمي طويلا فانني له بالخصال الصالحات وصول

الحسان ولا يصح الشرط ههنا لأن قصر جسمه شيء قد كان وقع والشرط ههنا محال ومثله قول الآخر

فان أك قد فارقت نجداً وأهله ... فما عهد نجد عندنا بذميم

وأما وقوع اذا بمعنى ان فكقول أوس بن حجر [١]

اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا ... أصبت حليما أو أصابك جاهل

والاعراض عن الخنا ممكن أن يكون وممكن أن لا يكون فليس هذا من مواضع اذا وانما هو من مواضع إن

وأما ورود المدح في صورة الذم فكقولهم أخزاه الله ما أشعره . ولعنه الله ما أفصحه . وقول كعب بن سعد الغنوي [٢]

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا ... وماذا يردّ الليل حين يؤوب

وبعده

ولا خير في حسن الجسوم ونبلها ... اذا لم تزن حسن الجسوم عقول

«١» الصواب أن هذا البيت لزهير بن أبي سُلمى من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان ومطلعها

لسلمى بشرقيّ القَنان منازل ... ورسم بصحراء اللُّبَيَّيْن حائل

القنان جبل لبني أسد . وحائل يعني أتى عليه الحول

«٢» في مرثيته لأبي المغوار وقد تقدم منها أبيات

وذكر ابن جني ان اعرابياً رأى ثوبا فقال ماله محقه الله قال فقلت له لم تقول هذا فقال اذا استحسنا شيئاً دعونا عليه. وأصل هذا أنهم يكرهون أن يمدحوا الشيء فيصيبونه بالعين فيعدلون عن مدحه الى ذمه

واما ورود الذم في صورة المدح فكقوله تعالى « إنكَ لأنتَ الحليمُ الرشيد» وقول الشاعر

وقلت لسيدنا يا حليم الك لم تأس أسواً رفيقا

واما التقليل الوارد بصورة التكثير فنحو قولك كم بطل قتل زيد وكم ضيف نزل عليه وأنت تريد أنه لم يقتل بطلا قط ولا قرى ضيفا قط ولكنك تقصد الاستهزاء به كما تقول للبخيل يا كريم وللأحمق يا عاقل

وأما التكثير الوارد بصورة التقليل فنحو قولك رب ثوب حسن قد لبست ورب رجل عالم قد لقيت فتقلل ما لبست من الثياب ومن لقيت من العلماء تواضعا ليكون أجل لك في النفوس لأن الرجل اذا حقر نفسه تواضعاً ثم اختبر فوجد أعظم مما وصف به نفسه عظم في النفوس واذا تعاظم وأنزل نفسه فوق منزلتها ثم اختبر فوجد أقل مما قال استخف به وهان على كل

من كان يعظمه وقد يستعمل تقليل الشيء وهو كثير في الحقيقة لضروب من الأغراض والمقاصد كالرجل يهدد صاحبه فيقول لا تعادني فربما ندمت وهذا مكان ينبغي أن تكثر فيه الندامة وليس بموضع تقليل وانما تأويله أن الندامة على هذا لو كانت قليلة لوجب أن يتجنب مايؤدي اليها فكيف وهي كثيرة فصار فيه من معنى المبالغة ماليس في التكثير لو وقع ههنا

ومن هذا قوله تعالى « رُبَمَا يودُّ الذينَ كَفَرُوا لو كانوا مسلمين » وانما تأتي رب بمعنى التكثير في مواضع الافتخار والوجه في ذلك أن المفتخر يريد أن الامر الذى يقل وجوده من غيره يكثر وجوده منه فيستعير لفظ التقليل في موضع التكثير اشارة الى هذا المعني وليكون أبلغ في الافتخار . وقد توهم قوم ان رب للتكثير حين خفي عليهم ماذكرناه من تداخل المعاني وهذه غفلة شديدة لأنا نجد المدح يخرج مخرج الذم والذم يخرج مخرج المدح ولا يخرجهما ذلك عن موضوعهما الذي وضعا عليه في أصل وضعهما كما أن الاسم العلم الذي وضع فى أصل وضعه للخصوص قد يعرض له العموم والنكرة التي وضعت في أصل وضعها للعموم قد يعرض لها الخصوص ولا يبطل ذلك

وضعها الذي وضعا عليه أولا وإنما ذلك لكثرة المعاني وتداخلها واختلاف الأغراض وتباينها فمتى وجدت شيئاً قد خالف أصله فانما ذلك لسبب وغرض فيجب لك أن تبحث عنه ولا تتسرع الى بعض الأصول دون تثبت وتأمل فمن مشكل هذا الباب قول أبي كبير الهذلي

أزهيرَ ان يشب القذال فانني رُبَ هيضل «١» مرس لففت بهيضل

زهير هاهنا ترخيم زهيرة وهي ابنته فلذلك فتح الراء ورُبَ ههنا مخففة من رُبَّ وقول أبي عطاء[2] السندي

فان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

والمراد بهذين البيتين التكثير ولكن خرجا مخرج التقليل ليكون امدح والمعنى ان هذا لو كان قليلا لكان فيه فخر لصاحبه فما ظنك به وهو كثير ويحتمل قول أبي عطاء السندي أن يكون أراد تقليل مدة حياة المرثي التي كثرت فيها عليه الوفود فعلى نحو هذه التأويلات فتأول ماورد مخالفا للاصول وملاك هذا

---

(١) ويروى رُبْ هيضل بسكون الباء . وهيضل الجماعة . ومرس اي مجتمع

«٢» من مخضرمي الدولتين اسمه أفلح مولى عنبر بن سماك بن حصين وهذا البيت من قصيدة له يرثي بها عمر بن هبيرة الفزاري

الباب معرفة الحقيقة والمجاز وهو باب يدق على من لم يتمهر في
هذه الصناعة فلذلك ينكر كثيراً مما هو صحيح ولله در أبي
الطيب المتنبي حيث يقول

وكم من عائب قولا صحيحاً — وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه — على قدر القرائح والعلوم

ومن ظريف المجاز العارض من طريق التركيب ايقاعهم ادوات
المعاني على السبب ومرادهم المسبب تارة وتارة يوقعونها على
المسبب ومرادهم السبب وانما يفعلون هذا لتعلق أحدهما بالآخر
فمثال الاول قوله تعالى «ولَا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون» فأوقع
النهي على الموت في اللفظ والموت ليس بفعل لهم فيصح نهيهم
عنه وانما نهاهم عن مفارقة الاسلام فمعناه لا تفارقوا الاسلام
حتى تموتوا عليه فأوقع النهي على الموت لانه السبب الذي من
أجل توقعه وخوفه يلزم الانسان أن يستعد لوروده ويتأهب
له بصالح عمله والثاني مثل قوله تعالى «فما تَنْفَعُهُمْ شفاعةُ الشَّافعينَ»
وليس المراد اثبات شفاعة غير نافعة لانه لاشفاعة هناك في
الحقيقة بدليل قول تعالى «فما لنا منْ شافعينَ وَلَا صَديقٍ حميمٍ»
فاوقع النفي على المنفعة التي هي المسبب ومراده تعالى الشفاعة

التي هي السبب فكأنه قال فما تكون شفاعة فتكون منفعة ونحوه قولك مانفعنى كلام زيد فهذا كلام يحتمل معنيين أحدهما أن تريد اثبات الكلام ونفي المنفعة وحدها والثاني ان تريد نفيهما معاً أي لم يكن منه كلام فيكون منفعة ومثله قول امرئ القيس . على لا حب لا يهتدى بمناره [١] . ولم يرد إثبات المنار ونفي الهداية به ولو كان ثمّ منار لكانت ثم هداية وإنما المعنى ليس به منار فيكون هداية

ومن هذا قول العرب لا أرينَّك ههنا أي لا تكونن ههنا فاني أراك فالمراد بالنهي الكون لا الرؤية ونحوه قول النابغة

لأعرفنْ ربرباً حوراً مدامعها ... كأن أبكارها نِعاج دُوَّار (٢)

فعلى هذا مجرى الباب والله أعلم

---

(١) تمته . إذا سافهُ العَوْدُ النُّباطِيّ جرجرا . اللاحب الطريق الواضح . وسافه شمَّه والعَوْد الجمل المسنّ والنباطيّ نسبة للتبطو ويروى الدِّيافيّ نسبة الي دِياف قرية بالشام تنسب اليها النجائب . والجرجرة صوت الفحل من الابل اذا ضجر

(٢) هذا البيت من قصيدته التي أولها

عوجوا فحيُّوا لنعم دِمنة الدار ... ماذا تحيُّون من نُؤْيٍ وأحجار

نُعم اسم التي يتغزل بها والنؤي اسم للحفرة التي تحفر حول الخباء

الباب الثالث

﴿ في الخلاف العارض من جهة الافراد والتركيب ﴾

هـذا باب ظريف جـداً وقد تولدت منه بين النـاس أنواع كثيرة من الخلاف وهو باب يحتاج الى تأمـل شديد وحذق بوجوه القياس ومعرفة تركيب الألفاظ وبناء بعضها على بعض وذلك أنك تجد الآية الواحدة ربما استوفت الغرض المقصود بها من التعبد فلم تحوجك الى غيرها كقوله تعـالى « يا أيها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكم » و « يا أيها الَّذِين آمَنُوا آمنُوا باللهِ ورسولهِ » وقوله تعالى « وأَطِيعوا اللهَ وأطيعُوا الرسولَ » فان كل واحدة من هذه الآيات قائمة بنفسها مستوفية للغرض المراد منها وكذلك الاحاديث الواردة كقوله . الزعيم غارم والبيِّنة على المدَّعِي واليمين على المدَّعى عليه . وربما وردت الآية غير

لئلا يدخله ماء المطر . والربرب القطيع من الغزلان وعنى به جماعة النساء . وحوراً مدامعها أي حور عيونها والحـور في العيون شدة بياض بياضها وسواد سوادها . ودُوّار اسم صنم ونعاجه النساء اللاتي تدور به

مستوفية للغرض المراد من التعبد وورد تمام الغرض في آية أخرى وكذلك الحديث كقوله تعالى « مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له فى حَرْثِه ومَنْ كانَ يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة مِنْ نَصِيب » فظاهر هذه الآية أن من أراد حرث الدنيا أوتي منها ونحن نشاهد كثيراً من الناس يحرصون على الدنيا ولا يؤتون شيئاً منها فهو كلام محتاج الى بيان وإيضاح ثم قال في آية أخرى « من كان يُرِيدُ العَاجلةَ عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » فاذا أضيفت هذه الآية الى الاية الاولى بان مراد الله تعالى وارتفع الاشكال وكذلك قوله تعالى « وإذَا سَأَلَكَ عبادي عنّي فاني قريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي اذا دَعَانِ » ثم قال في آية أخرى « بَلْ إيَّاهُ تَدْعُونَ فيَكْشفَ ماتدعون إليه إن شاء » فدل اشتراط المشيئة في هذه الآية الثانية على أنه مراد في الآية الأولى وربما وردت الآية مجملة ثم يفسرها الحديث كالآيات الواردة مجملة في الصلاة والزكاة والصيام والحج ثم شرحت السنة والآثار جميع ذلك كقوله تعالى « واللّاتي

يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » ثم قال صلى الله عليه وسلم خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم . ولأجل هذا صار الفقيه مضطراً في استعمال القياس الى الجمع بين الآيات المفترقة وبين الاحاديث المتغايرة وبناء بعضها على بعض

ووجه الخلاف العارض من هذا الموضع أنه ربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية أو بمفرد الحديث وبنى آخر قياسه على جهة التركيب الذي ذكرنا بأن يأخذ بمجموع آيتين أو بمجموع حديثين أو بمجموع آيات أو بمجموع أحاديث فيفضي بهما الحال الى الاختلاف فيما ينتجانه وربما أفضت بهما الحال الى التناقض فأحل أحدهما ما يحرمه الآخر وربما أفضى بهما الامر الى اختلاف العقائد فقط وربما أفضى بهما الى الاختلاف في الاسباب فقط كاختلافهم في سبب تحريم الخمر فان قوماً يستدلون على وجوب تحريمها بمجرد قوله تعالى « وَمَا آتاكُم

الرسولُ فخذوه وما نهاكُم عنه فانتهوا » وقوم يستدلون عليه بمجرد قوله تعالى « يا أيُّها الذين آمَنُوا إنما الخمرُ والمَيْسِرُ والأنصابُ والأزْلامُ رِجسٌ من عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجتَنِبُوه » الى قوله « فهل أنتم منتهون» وقوم يرون ذلك بطريق التركيب وبناء الالفاظ بعضها على بعض وذلك أنه لما قال تبارك وتعالى « يسئلُونكَ عن الخمر والميسر قلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس» ثم قال فى آية أخرى « قلْ انما حرَّمَ ربي الفواحشَ ماظهرَ منها وما بَطنَ والإثمَ » تركب من مجموع الآيتين قياس أنتج تحريم الخمر وهو أن يقال كل إثم حرام والخمر إثم فالخمر اذاً حرام

ومثل هذا قوله تعالى فيما حكاه عن قوم لوط « أتأتُونَ الفاحشةَ ما سبقكُم بها من أحدٍ من العالمين » ثم قال فى هذه الآية التى ذكرناها « قل إنَّما حرَّم ربي الفواحشَ ماظهرَ منها وما بَطَن » فتركَّب من مجموع الآيتين قياس وهو كل فاحشة حرام. وفعل قوم لوط فاحشة ففعل قوم لوط اذاً حرام. فعلى مثل هذا أنتجت النتائج وركبت القياسات ووقع بين أصحاب القياس الخلاف بحسب تقدم القياس أو بحسب تأخره وخالفهم قوم آخرون لم يروا القياس ورأوا الاخذ بظاهر

الالفاظ فنشأ من ذلك نوع اخر من الخلاف

ومما اختلف فيه أقوال الفقهاء لأخذ كل واحد منهم بحديث مفرد اتصل به ولم يتصل به سواه ما روي عن عبد الوارث[1] بن سعيد أنه قال قدمت مكة فألفيت بها أبا حنيفة فقلت له ماتقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً فقال البيع باطل والشرط باطل فأتيت ابن أبي ليلى فسألته عن ذلك فقال البيع جائز والشرط باطل فأتيت ابن شُبْرُمة فسألته عن ذلك فقال البيع جائز والشرط جائز فقلت في نفسي سبحان الله ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسئلة فعدت الى أبي حنيفة فأخبرته بما قال صاحباه فقال ما أدري ما قالا لك حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط فالبيع باطل والشرط باطل فعدت الى ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال صاحباه فقال ما أدري ما قالا لك حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أشتري بَرِيرة فأعتقها

(١) وفي نسخة الليث بن سعد

البيع جائز والشرط باطل .[١] قال فعمدت الى ابن شبرمة فأخبرته بما قال صاحباه فقال ما أدري ماقالا لك حدثني مسعر ابن كدام عن محارب بن دثار عن جابر قال بعت النبي صلى الله عليه وسلم بعيرا وشرط لي حُملانه الى المدينة البيع جائز والشرط جائز .

وقد ترد الآية أو الحديث بلفظ مشترك يحتمل تأويلات كثيرة ثم ترد آية أخرى أو حديث آخر بتخصيص ذلك اللفظ

---

(١) لم يذكر المصنف الحديث برُمته وزيادة في الايضاح نذكر مارواه الامام البخاري في صحيحه في باب الشروط في الولاء . عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت جاءتني بريرة فقالت كاتبت أهلي على تسع أواق في كل عام أوقيــة فأعينيني فقلت ان أحبوا أن أعدّها لهم ويكون لي ولاؤك فعلت فذهبت بريرة الى أهلها فقالت لهم فأبوا عليها فجاءت من عندهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فقالت اني عرضت ذلك عليهــم فأبوا الا أن يكون الولاء لهم فأخبرت عائشة النبي صلى الله عليه وسلم فقال خذيها واشترطي لهم الولاء فانما الولاء لمن اعتق ففعلت عائشــة ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال مابال رجال يشــترطون شروطاً ليست فى كتاب الله ماكان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وان كان مائة شرط قضاء الله أحق وشرط الله أوثق وانما الولاء لمن اعتق اه

المشترك وقصره على بعض تلك المعاني دون بعض كقوله عز
من قائل « وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى » فان لفظة الضلال لما كانت
مشتركة تقع على معان كثيرة توهم قوم ممن لم يكن له فهم صحيح
بالقرآن ولا معرفة ثاقبة باللسان أنه أراد الضلال الذي هو ضد
الهدى فزعموا أنه كان على مذهب قومه أربعين سنة وهو
خطأ فاحش نعوذ بالله من اعتقاده في من طهره الله تعالى
لنبوته وارتضاه لرسالته ولو لم يكن في القرآن العزيز ما يرد قولهم
لكان فيما ورد من الأخبار المتواترة ما يرد عليهم ذلك لأنه
قد روى أنهم كانوا يسمونه في الجاهلية الأمين وكانوا يرتضونه
حكماً لهم وعليهم وكانت عندهم أخبار كثيرة يروونها وإنذارات
من أهل الكتاب والكهان بأنه يكون نبياً ولولا أن كتابنا
هذا ليس موضوعاً لها لاقتصصناها فكيف والقرآن العزيز
قد كفانا هذا كله بقوله عز من قائل في سورة يوسف عليه
السلام « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » فهذا نصٌّ جلي
في شرح ما وقع في تلك الآية من الابهام وبين أنه تعالى إنما

أراد الضلال الذي هو الغفلة كما قال في مواضع أخرى « لا يضلّ ربّي ولا ينسى » أي لا يغفل وقال تعالى « أن تضل احديهما فتذكّر احديهما الأخرى » أي تغفل (١) وقالت الصوفية معناه ووجدك محبا في الهدى فهداك فتأولوا الضلال هنا بمعنى المحبة وهذا قول حسن جداً وله شاهد من القرآن واللغة أما شاهده من القرآن فما حكاه الله تعالى من قول إخوة يوسف لابيهم « تَاللهِ إنّكَ لفي ضلالك القديم » انما أرادوا بالضلال هنا افراط محبته في يوسف صلى الله عليهم أجمعين وأما شاهده من اللغة فانه جائز في مذاهب العرب أن تسمّى المحبة ضلالا لأن افراط

---

(١) قال شيخنا العلامة الفهامة الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في رسالة التوحيد عند هذا الموضوع ما نصه

وما جاء في الكتاب من قوله « ووجدك ضالاً فهدى » لايفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم حاش لله إن ذلك لهو الافك المبين وانما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل الى ما هُدوا اليه من انقاذ الهالكين وارشاد الضالين وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته. واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته ﻫ

المحبة يشغل المحب عن كل غرض ، ويحمله على النسيان والاغفال لكل واجب مفترض، ولذلك قيل الهوى يعمي ويصم فسميت المحبة ضلالا اذ كانت سبب الضلال على مذاهبهم فى تسمية الشيء باسم الشيء اذا كان منه بسبب

ومن هذا الباب قوله سبحانه وتعالى فى سورة نوح عليه السلام « أَنِ اعبُدوا اللهَ واتَّقُوه وأَطيعُونِ يَغفِرْ لكم مِنْ ذُنوبكم ويؤخِّرْكم الى أَجلٍ مسمى » والأَجل قد علمنا أنه لا تأخير فيه وقد بين ذلك بقوله فى عقب الآية « إِنَّ أَجَلَ الله إِذا جاءَ لا يؤَخَّرَ » وقال فى موضع آخر « فاذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَستأْخِرُونَ ساعةً ولا يَستَقْدِمونَ » فوجب أن ينظر فى معنى هذا التاخير ماهو ثم وجدنا هـذه الآية المبهمة المجملة قد شرحتها آية واضحة مفصلة كفتنا التأويل، ولم تحوجنا الى طلب الدليل ، وهى قوله تعالى فى اول سورة هود عليه السلام « وأَنِ اُستَغفِرُوا ربَّكُمْ ثمَّ تُوبُوا إِليهِ يُمتِّعكُمْ متاعاً حسناً إلى أَجلٍ مُسمًّى » فدلت هذه الآية على أنه انما أراد بتأخير الاجل التمتيع الحسن لان التمتيع الحسن يجتمع فيه الغنى والسلامة من الآفات والعز والذكر الحسن والعرب تسمى هذه الاشياء زيادة فى العمر وتسمي

اضدادها وخلافها نقصانا من العمر وقد جاء في بعض الحديث
أن موسى عليه السلام شكا الى الله تعالى بعدوّله فاوحى الله تعالى
اليه انى سأميته فلما كان بعد زمن رآه فقيراً ينسج الحصير فقال
يارب ألم تعدني أن تميته فقال أو ليس قد أفقرته

ﻫ وقد تعين علينا في هذا الموضع أن نذكر على كم معنى
تتصرف الحياة والموت في اللسان العربي لبيين ما ذكرناه
بشواهده حتى لا يبقى فيه لطاعن مطعن بحول الله تعالى

إعلم أن الحياة والموت لفظتان مشتركتان تستعملان في
اللغة العربية على ثلاثة عشر وجهاً (أحدها) الوجود والعدم
(والثاني) مقارنة النفس الحيوانيـة للاجسام ومفارقتها اياها
(والثالث) العز والذل (والرابع) الغنى والفـقر (والخامس)
الهدى والضلال (والسادس) العلم والجهل (والسابع) الحركة
والسكون (والثامن) الخِصب[1] والجدب (والتاسع) اليقظة

(١) بكسر الخاء . قال بعض اللغويين ثلاث مكسورات خير من ثلاث
مفتوحات العلم خير من الجهل والخصب خير من الجدب والسلم خير من
الحرب . على ان السلم جاء بالفتح في قراءة نافع امام أهل المدينة في قوله
تعالى « وإن جنحوا للسَّلْم » الخ الآية

والنوم (والعاشر) اشتعال النار وخمودها (والحادي عشر) المحبة والبغضاء (والثاني عشر) الرطوبة واليبس (والثالث عشر) الرجاء والخوف . ونحن نورد على كل وجه من هذه الوجوه أمثلة تشهد بصحة ما قلناه ان شاء الله تعالى

أما الحياة والموت المراد بهما مقارنة النفوس للاجسام ومفارقتها اياها فشهرتهما تغني عن ايراد مثال لهما

وأما الوجود والعدم فكقولهم للشمس ما دامت موجودة حية فاذا عدمت سموها ميتة قال ذو الرمة

فلما رأين الليل والشمس حيّةٌ   حياة الذي يقضي حشاشة نازع

شبه الشمس عند غروبها بالحي الذي يجود بنفسه عند الموت وهو من التشبيه البديع وقال آخر

إذا شئت أدّاني صَرُومٌ مشيّعٌ   معي وعقامٌ تتّقي الفحلَ مُقلِتُ(١)

يطوف بها من جانبيها ويتقي   بها الشمس حيٌّ في الأكارع ميت

يريد ظلها في نصف النهار أراد أنه موجود في الاكارع معدوم في سائر الجسم

وأما العز والذل والفقر والغنى فنحو ما قدمناه من

(١) الصروم في البيت يريد به قلبه . والعقام الناقة العاقر والمقلت التي لا يعيش لها ولد والاكارع جمع كراع وهو مستدق الساق العاري من اللحم

حديث موسى عليه السلام ونحو ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله . من سرّه النسأ في الاجل والسّعة في الرزق فليصل رحمه . ومنه قول الشاعر (١)

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميْتُ ميّتُ الاحياء
إنما المَيت من يعيش كئيباً ... كاسفاً بالُه قليل الرجاء

وقال آخر (٢)

فأثنُوا علينا لا أباً لابيكم ... بأفعالنا ان الثناء هو الخُلْد

وقال آخر

وكان أبو عمرو معاراً حياته ... بعمرو فلما مات مات أبو عمرو

يقول كان ابنه عمرو يحيي ذكره فكأنه حيّ فلما مات انقطع ذكره فكأنه انما مات حينئذ

---

(١) هو عدي بن الرعلاء الغساني شاعر جاهلي وهذا البيت من قصيدة له ومطلعها

ربما ضربة بسيف صقيل ... بين بصرى وطعنة نجلاء

(٢) هو الحويدرة الذبياني جاهلي شاعر مفلق مقلّ ويقال له الحادرة أيضاً واسمه قطبة بن اوس وهذا البيت من أبيات له مذكورة في الاغاني واولها

ونحن منعنا من تميم وقد طغت ... مراعي الملا حتى تضمنها نجد

قال صاحب الاغاني كان حسان بن ثابت اذا قيل له تنوشدت الاشعار

وأما ما يراد به الهدى والضلال والعلم والجهل فكقوله تعالى «يا أيها الذينَ آمنوا استَجيبُوا لِلهِ وللرَّسول إذا دعاكم لما يُحْييكمْ» وقوله عز وجل «أَوَمن كانَ ميتاً فأَحْيَيْنَاهُ» المعنى أومن كان ضالا فهديناه وجاهلا فعلمناه وتقول العرب للذكي النبيه حيّ وللبليد الغبي ميت وقال لقمان لابنه يا بني جالس العلماء وازحمهم بركبتيك فان الله يحيي القلب الميت بالكلمة من الحكمة يسمعها كما يحيي الارض بالمطر

وأما الحياة والموت المراد بهما الحركة والسكون فنحو قول الراجز

قد كنت أرجو أن يموتَ الريح ... فأرقدُ اليومَ وأستريح

فجعل هبوب الريح حياة وسكونها موتاً وقال المجنون

يموت الهوى مني اذا ما لقيتها ... ويحيا اذا فارقتها فيعود

وقال آخر

ومجلودةٍ بالسوط فيه حياتها ... فان زال عنها الجلد بالصوت ماتَتِ

يعني الدّوامة (١)

في موضع كذا وكذا يقول فهل أنشدت كلمة الحويدرة

بكرتْ سمية بكرةً فتمتعي ... وغدت غدوّ مفارق لم يربع

قال أبو عبيدة وهي من مختار الشعر أصمعية مفضلية هـ

(١) بالضم والتشديد وهي فلكة يرميها الصبي بخيط فتدوم على الارض

وأما ما يراد به الخصب والجدب فان العرب تقول أتيت الارض فأحييتها اذا وجدتها مخصبة ويقال أرض حية أي بالماء وأرض ميتة أي بغير ماء قال الله تعالى «فأحيينا به بلدة ميتا» وقال الراجز

أقبل سيلٌ جاء من أمر اللهْ يَحْرِدُ حَرْدَ الحية المغله(١)

قال بعض أصحاب المعاني أراد بالحية الأرض المخصبة والمغلة ذات الغلة وتشهد لهذا التأويل رواية من روى الجنة بالجيم والنون . وقال آخرون انما أراد الحية نفسها والمغلة ذات الغل والحقد وشبه تلوي السيل وانعطافه في جريه بتلوي الحية وانعطافها اذا مشت وهذا نحو قول ذي الرمة

أي تدور اه صحاح

(١) قال المبرد في الكامل ذكر أبو عبيد أن أبا حاتم قال هذا البيت مصنوع صنعه من لا أحسن الله ذكره يعني قطرباً محمد بن المستنير قال ابن الشجري في أماليه قائل هذا الرجز انما حذف الالف من لفظ الجلالة للضرورة وأسكن آخره للوقف عليه ورقق لامه لانكسار ما قبلها ولو لم يأت على قافية البيت (المغله) لأمكن أن يقول جاء من أمر الله فيثبت الفه ويقف على الهاء بالسكون هـ من خزانة الادب للبغدادي

بين حِفافيْ جدول مسجور (١) كالسيف أو كالحية المذعور

— وأما اليقظة والنوم فكقول الله تعالى « أَللهُ يَتَوَفَّى الأنفسَ حينَ موتِها والتي لم تمت في منامها » فسمى النوم وفاة . وسأل رجل ابن سيرين عن رجل غاب عن مجلسه فقال أما علمت أنه توفي البارحة فلما رأى جزع السائل قرأ « الله يتوفى الأنفس حين موتها » وقال الشاعر

نموتُ ونحيا كل يوم وليلة ولا بد يوماً أن نموت ولا نحيا

— وأما اشتعال النار وخمودها فمشهور متعارف أيضا فمنه قول ذي الرمة يصف ناراً اقتدحها

فقلت له ارفعها اليك وأحيها بروحك واقته لها قيتة قدرا

وقال آخر في مثله

وزهراء ان كفنتها فهو عيشها وان لم أكفنها فموت معجل

يعنى بالزهراء الشررة الساقطة من الزَّند عند الاقتداح يقول إن بادرت اليها عند سقوطها من الزند فلففتها فى خرقة حييت وأن تركتها ماتت وطفئت

— واما الحياة والموت المستعملان بمعنى المحبة والبغضاء

«١» حفافيْ مثنى حفاف وهو الجانب . ومسجور أي مملوء

فكقول الشاعر

أبلغ أبا مالك عني مغلغلة(١) وفي العتاب حياة بين أقوام

أي اذا تعاتبوا حييت المودة بينهم واذا تركوا العتاب ماتت المودة بينهم أي ذهبت وانقطعت وصاروا إلى البغضاء والتهاجر

— وأما الرطوبة واليبس فكنحو ماذهب اليه السدّي في قوله تعالى « يخرِجُ الحيَّ منَ الميتِ ويُخرِجُ الميّتَ من الحيّ » قال معناه يخرج السنبلة الخضراء من الحبة اليابسة ويخرج الحبة اليابسة من السنبلة الخضراء وهذا راجع إلى معنى الخصب والجدب من بعض وجوهه ونحو نحوه قول ابن ميادة(٢)

سحائب لامن صيف ذى صواعق ولا محرقات ماؤهن حميم
اذا ماهبطن الارض قد مات عودها بكين بها حتى يعيش هشيم

— وأما الرجاء والخوف فلا أذكر عليهما شاهداً غير قول أبي الطيب

---

(١) المغلغلة الرسالة ورسالة مغلغلة محمولة من بلد الى بلد

(٢) هو الرّماح الغطفاني من شعراء الدولتين . والصيّف في البيت مطر الصيف

تركتني اليوم في خجلة   أموت مراراً وأحيا مرارا

فهذه وجوه الحياة والموت في كلام العرب قد استوفينا أقسامها لما جرى من ذكر الآية المتقدمة ثم نرجع الى ما كنا فيه فنقول

إن من ظريف أمر هذا الباب أنه قد يتولد منه مقالتان متضادتان كلتاهما غلط ويكون الحق في مقالة ثالثة متوسطة بينهما ترتفع عن حد التقصير وتنحط عن حد الغلو والافراط وإذا تأملت المقالات التي شجرت بين أهل ملتنا في الاعتقادات رأيت اكثرها على هذه الصفة وقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله « دين الله بين الغالي والمقصر »[1] فهذا تصريح منه بهذا الذي ذكرنا وتحذير منه وقال أيضاً خير الأمور أوساطها وقال رجل للحسن البصري رحمه الله علمني ديناً وسوطاً لا ساقطاً سقوطاً ولا ذاهباً فروطاً فقال أحسنت خير الأمور أوساطها . وهذا نوع يطول فيه الكلام إن ذهبنا الى تتبعه ولكننا نذكر منه شيئاً يستدل به على غيره

---

(١) وقوله صلى الله عليه وسلم « الحسنة بين السيئتين » السيئة الاولى الافراط والسيئة الثانية التفريط

١ ـــ فمن ذلك أن قوماً لما خطر ببالهم أمر القدر والقضاء وأحبوا الوقوف على حقيقة ما ينبغي أن يعتقد فى ذلك تأملوا القرآن العزيز والحديث المأثور فوجدوا فيهما أشياء ظاهرها الأجبار والاكراه كقوله تعالى « ولو شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُم على الهدى فلا تكونَنَّ من الجاهلين » وقوله « خَتَمَ اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » وقوله « بل طَبَعَ اللهُ عليها بكُفرِهِم » فى آيات كثيرة غير هذه ووجدوا فى الحديث المأثور أيضاً نحو ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم . السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه . فبنوا من هذا النوع من الآيات والأحاديث مقالة أصلوها على أن العبد مجبر ليس له شيء من الاستطاعة وصرحوا بأن من اعتقد غير هذا فقد كفر .

٢ ـــ وخطر ببال آخرين مثل ذلك ورأوا مذهب هؤلاء فلم يرتضوه معتقداً لأنفسهم فتصفحوا القرآن والحديث فوجدوا فيهما آيات أخر وأحاديث ظاهرها يوهم ان العبد مستطيع مفوض أمره اليه يفعل ما يشاء كقوله تعالى « ولا يرضى لعباده الكفر » وقوله « وأما ثمودُ فهديناهم

فاستحبوا العمى على الهدى» وقوله «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا» وقوله صلى الله عليه وسلم . كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . وقوله . يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء[١] كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم . فبنوا من هذا النوع من الآيات والاحاديث مقالة ثانية مناقضة للمقالة الأولى أصلوها على أن العبد مخير مفوض إليه أمره يفعل ما يشاء ويستطيع على ما لا يريده ربه تعالى الله عما يقوله الجاهلون علواً كبيراً . ثم عمدت كل فرقة من هاتين الفرقتين إلى ما خالف مذهبها من الآيات والاحاديث فطلبت له التأويل البعيد وردوا ما امكنهم رده من الاحاديث المناقضة لمذهبهم وإن كان صحيحاً كمن يروم

(١) قال في لسان العرب أي طاهري الأعضاء من المعاصي لا أنهم خلقهم مسلمين كلهم لقوله تعالى « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » وقيل أراد أنه خلقهم حنفاء مؤمنين لما أخذ عليهم الميثاق « ألست بربكم » فلا يوجد أحد الا وهو مقر بأن له رباً وان أشرك به واختلفوا فيه . وقوله اجتالتهم أي استخفتهم فجالوا معهم ويروى فاحتالتهم الشياطين أي نقلتهم من حال الى حال قال ابن الاثير والمشهور رواية الجيم اه

ستر ضوء النهار ويؤسس بنيانه على شفا جرف هار

٢ ولما تأملت طائفة ثالثة مقالتي الفرقتين معاً لم يرتضوا بواحدة منهما معتقداً لانفسهم ورأوا انهما جميعاً خطأ لان المقالة الاولى تجوير للباري تعالى بأمر خلقه وتعجيز له عن اتمام مشيئته فيهم وكلتا الصفتين لاتليق بمن قد وصف نفسه بانه أحكم الحاكمين وأقدر القادرين ووصف نفسه جلّ جلاله بقوله « وَمَا يَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الارْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » ورأوا أن الأخذ بالآيات والأحاديث الأول ليس بأولى من الأخذ بالآيات والاحاديث الأُخر وأن الحق انما هو في واسطة تنتظم الطرفين وتسلم من شناعة المذهبين واعتبروا القرآن والحديث ببصائر أصح من بصائر الفريقين فوجدوا آيات واحاديث تجمع شتيت المقالتين وتخبر بغلط الفريقين كقوله تعالى « وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيلاً » وقوله في سورة يوسف عليه السلام « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » وقوله « وما تَشَاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ » فأثبت

للعبد مشيئة لا تتم إلا بمشيئة ربه تعالى ووجدوا الامة مجمعة على قولهم لا حول ولا قوة الا بالله وفي هذا اثبات حول وقوة للعبد لا يتمان إلا بمعونة الله اياه ووجدوا الامة مجمعة على الرغبة الى الله في العصمة والاستعاذة به من الخذلان وقولهم . اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجز ولا إلى الناس فنضيع . ورأوا الله تعالى قد أثبت لنفسه في محكم وحيه علم غيب وعلم شهادة بقوله «عالم الغيب والشهادة» فعلمه الغيب علمه بالاشياء قبل كونها وعلمه الشهادة علمه بالاشياء وقت كونها واعتبروا أحوال الانسان التي وقع فيها التكليف وأحواله التي لم يقع فيها تكليف فوجدوا الله تعالى لم يامره بان لا يبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشرب على الاطلاق انما أمره بان يستعمل الآلة التي يسمع بها ويبصر بها ويأكل في بعض الاشياء ولا يستعملها في بعض فوجب أن يكون بين الامرين فرق ولا فرق ههنا الا انه مُكّن من أحد الامرين وجعلت له استطاعة عليه ولم يمكن من الآخر . وكذلك رأوا حركة يد المفلوج تخالف حركة يد الصحيح فثبت أن بينهما فرقا ولا فرق إلا وجود الاستطاعة على وجه لا يقتضي ما توهمته القدرية من التفويض ووجدوا مع هذا أحاديث تؤيد بطلان قول

الفريقين معا وتدل على أن الحق متوسط بين غلو أحد الفريقين وتقصير الآخر كنحو ماروي عن جعفر الصادق رضى الله عنه أن رجلا قال له هل العباد مجبرون فقال جعفر الله أعدل من أن يجبر عبده على معصية ثم يعذبه عليها فقال له السائل فهل أمرهم مفوض اليهم فقال الله أعز من أن يجوز في ملكه مالا يريد فقال له السائل فكيف ذلك إذاً قال أمر بين الامرين لا جبر ولا تفويض . وكنحو ماروي عن على رضي الله عنه أنه لما انصرف من صفين قام اليه شيخ فقال يا أمير المؤمنين أرأيت مسيرنا الى صفين أبقضاء وقدر فقال على رضي الله عنه والله ماعلونا جبلا ولا هبطنا واديا ولا خطونا خطوة الا بقضاء وقدر فقال الشيخ فعند الله أحتسب عنائي إذاً مالي من أجر فقال له علي مه ياشيخ فان هذا قول أولياء الشيطان وخصماء الرحمن قدرية هذه الامة ان الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا لم يعص مغلوبا ولم يطع مكرها فضحك الشيخ ونهض مسرورا ثم قال

أنت الامام الذي نرجو بطاعته يوم القيامة من ذي العرش رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا جزاك ربك عنا فيه احسانا

— وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه نحو مقالة جعفر .

فلما وجدوا جميع هذا الذي ذكرناه جمعوا الآيات والاحاديث وبنوا بعضها على بعض فأنتج لهم من مجموعها مقالة ثالثة سليمة من شناعة المقالتين منتظمة لكل واحد من الطرفين ارتفعت عن تقصير الجبرية وانحطت عن غلو القدرية فوافقت قوله صلى الله عليه وسلم . دين الله بين الغالي والمقصر . بنوا تفريعها على أصل جملُ الغرض منه أن لله تعالى علم غيب سبق بكل ما هو كائن قبل كونه ثم خلق الانسان فجعل له عقلا يرشده واستطاعة يصح بها تكليفه ثم طوى علمه السابق عن خلقه وأمرهم ونهاهم وأوجب عليهم الحجة من جهة الامر والنهي الواقعين عليهم لا من جهة علمه السابق فيهم فهم يتصرفون بين مطيع وعاص وكلهم لا يعدو علم الله السابق فيه . فمن علم الله تعالى منه أنه يختار الطاعة فلا يجوز أن يختار المعصية ومن علم أنه يختار المعصية فلا يجوز أن يختار الطاعة ولو جاز ذلك لم يكن علم الله تعالى موصوفاً بالكمال ولكان كعلم المخلوقين الذى يمكن ان يقع كما علم ويمكن أن يقع بخلاف ما علم وليس فى علم الله الامور قبل وقوعها إجبار على ما توهمه المجبرون ولا يتم لاحد استطاعة على ما يهم به من الامور الا بأن يعينه الله عليه أو يكله الى حوله

ويسلمه اليه فإن عصمه مما يهم به من المعاصي كان فضلا وان
وكله الى نفسه كان عدلا فاذا اعتبرت حال العبد من جهة
الاضافة الى علم الله السابق فيه الذى لايعدوه وجد فى صورة
المجبر واذا اعتبرت حاله من جهة الاضافة الى الاستطاعة
المخلوقة له والامر والنهي الواقعين عليه وجد فى صورة المفوض
إليه وليس هناك اجبار مطلق ولا تفويض مطلق انما هو أمر
بين أمرين يدق عن أفكار المعتبرين ويحير أذهان المتأملين
وهذا هو معنى ما أشار اليه حذاق أهل السنة رحمهم الله من
قولهم ان العبد لا مطلق ولا موثق فما ورد من الآيات
والاحاديث التي ظاهرها الاجبار فهو مصروف الى أحد ثلاثة
أشياء إما الى العلم السابق الذى لامخرج للعبد منه ولا يمكنه
ان يتخير غيره واما الى فعل فعله الله تعالى به على جهة العقاب
كقوله تعالى « بَلْ طَبَعَ اللهُ عليها بكفرهم » وإما الى الاخبار
عن قدرته تعالى على مايشاء كقوله تعالى « ولَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ
على الهُدَى » وماورد من الآيات والاحاديث ظاهره التفويض
فهو مصروف الى الامر والنهى الواقعين عليه وانما غلطت
القدرية في هذا لانهم لايثبتون لله تعالى علماً سابقاً بالامور

القدرية

قبل وقوعها وعلم الله عندهم محدث تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيرا

ورأى المشيخة[1] وجلة العلماء الوقف عن الكلام في ذلك والخوض فيه لقوله صلى الله عليه وسلم . اذا ذكر القضاء فأمسكوا . فكان هذا المذهب أحسن المذاهب لمن آثر الخلاص والسلامة وهذه جملة قليلة تفصيلها كثير وهو باب ضيق المجال جداً والخائض فيه تسبق اليه الظنة بغير ما يعتقده فلذلك تحامى الكلام فيه بأكثر مما نبهنا عليه مع أنا لم نضع كتابنا هذا للخوض في المقالات انما وضعناه لتبيين المواضع التي نشأ منها الخلاف ولكنا نقول ينبغي لمن طلب هذا الشأن ولم يقنعه ما رآه العلماء وأمروا به من ترك الخوض فيه أن يراعي أصلين فان صحّا له من معتقده فليعلم أنه قد أصاب فصّ الحق وان اخطأهما أو واحداً منهما فليعلم أنه قد غلط فليراجع النظر (أحدهما) أنه لا فاعل على الحقيقة الا الله تعالى وأن كل فاعل غيره انما يفعل بمعونة من عنده ومادّة يمده بها من فيضه وحوله ولو وكله الى نفسه لما كان له فعل البتة (والثاني) انه

(١) يعني شيوخ العلم المعتبرين

أفعال الباري عز وجل كلها حكمة لا عبث فيها وعدل محض لا جور فيه وحسن محض لا قبح فيه وخير محض لا شرّ فيه وأن هذه الاشياء انما تعرض في أفعالنا إما لوقوع الامر والنهي علينا وإما لما رُكز في خلقتنا من القوة العقلية التي ترينا بعض الاشياء حسناً وبعضها قبيحاً وكلتا الصفتين لا يوصف بهما الباري سبحانه وتعالى لأنه لا آمر فوقه ولا ناهي وهو خالق العقل وموجده . وجملة ذلك أنه لا يشبه شيئاً من المخلوقات في جهة من الجهات فكل قول أدّاك الى تشبيهه بخلقه في ذات أو فعل فارفضه رفض النواة وانبذه نبذ القذاة وأعلم أن الحق في غيره فابحث عنه تظفر به وان لم يتفق لك فهم الغرض منه والمراد فاشدد يدك بعروة هذا الاعتقاد ولا تتهم بارئك في حكمته ، ولا تنازعه في قدرته ، واعلم بأنه غني عنك وأنت مفتقر اليه ، ووارد بما تزودت من علمك عليه ، تبارك المتفرد بأقضيته وأحكامه ، الذي لا ينازع في نقضه وابرامه ، ولا يمتري العاقلون في عدله ولا ييأس المذنبون من عفوه وفضله لا رب سواه ، ولا معبود حاشاه

الباب الرابع

﴿ في الخلاف العارض من جهة العموم والخصوص ﴾

هذ الباب نوعان (أحدهما) يعرض فى موضوع اللفظة المفردة (والثاني) يعرض في التركيب فأما الذي يعرض في موضوع اللفظة المفردة فنحو الانسان فانه يستعمل عموماً وخصوصاً أما العموم فكقوله تعالى « يا أيها الانسانُ ماغرَّك بربكَ الكريم » وقوله « إنَّ الانسانَ لفي خسر » ويدل على أنه لفظ عام لا يخص واحداً دون آخر قوله « إلاّ الذين آمنوا » فاستثنى منه ولا يستثنى الا من جملة ونحو هذا قول العرب أهلك الناس الدينار والدرهم وقولهم الملك أفضل من الانسان والانسان متعبد دون سائر الحيوانات

والخصوص نحو قولهم جائني الانسان الذي تعلم ولقيت الرجل الذي كلمك وقوله شربت الماء واكلت الخبز ولم يشرب جميع الماء ولا أكل جميع الخبز وهذا كثير مشهور تغني شهرته عن الا كثار منه . وقد يأتي من هذا الباب في القرآن العظيم والحديث أشياء يتفق الجميع على عمومها أو على خصوصها

وأشياء يقع فيها الخلاف

فمن العموم الذي لم يختلف فيه قوله تعالى «يا أيها الناسُ اتقُوا ربكم» و «يا أيها الناسُ إنّ وَعدَ اللهِ حقّ» وقول النبي صلى الله عليه وسلم . الزعيم غارم والبينة على المدّعي واليمين على المدّعَى عليه . ونحو ذلك كثير

ومن الخصوص الذي لم يختلف فيه قوله تعالى «ألّذِينَ قالَ لهمُ النّاسُ انّ الناسَ قد جمعُوا لكم» وهذا القول لم يقله جميع الناس وانما قاله رجل واحد وهو نعيم بن مسعود ولا جمع لهم جميع الناس وانما جمع لهم جزأً منه

ومما وقع فيه الخلاف فاحتاج الى فضل نظر قوله تعالى «إنْ تُبدوا ما في أنفُسكم أو تخفُوه يحاسِبكم بهِ الله» قال قوم ان هذه الآية نزلت عموماً ثم خصّصت بقوله صلى الله عليه وسلم . صفح لأمتي عما حدّثت به نفوسها ما لم تكلّمْ به أو تعمل . وروي عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت هي خصوص فى الكافر يحاسبه الله بما أسرّ وأعلن والقول الاول أصح لقوله تعالى بإثر ذلك «فيغفر لمنْ يشاء ويعذّب من يشاء»

ولا خلاف فى أن الكافر معذب غير مغفور له فدل هذا على أن الخطاب وقع عموماً لا خصوصاً ثم خُصص بما ذكرناه

ومن ذلك قوله تعالى « كلٌّ له قانتون » قال قوم هذا خصوص فى أهل الطاعة واحتجوا بأن كلاً وان كانت فى غالب أمرها للعموم فانها قد تأتي للخصوص كقوله تعالى « اني وجدتُ امرأةً تملكُهم وأُوتيت من كلِّ شيء » وقوله « ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ تدمِّرُ كلَّ شيء بأمر ربها » ثم قال « فأصبحوا لا يُرَى إلا مساكنهم » وقال آخرون هي عموم واختلف القائلون بالعموم فقال قوم أراد أنهم مطيعون له يوم القيامة وهذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال آخرون مطيعون فى الدنيا واختلف القائلون بالطاعة فى الدنيا فقال بعضهم طاعة الكافر سجود ظله لله عز وجل واحتجوا بقوله تعالى ولله يسجدُ من في السموات والأرضِ طوعاً وكرهاً وظلالُهم بالغدوّ والآصال» وقال آخرون معناه أن كلَّ ماخلق الله تعالى فقيه أثر للصنعة قائم ومِيسم[1] للعبودية شاهد أن له خالقاً حكيماً

(١) الميْسَمُ اسم للآلة التي يوسم بها واسم لأثر الوسم أيضاً وهو المراد هنا كقول الشاعر

لان أصل القنوت في اللغة القيام ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل أي الصلاة أفضل فقال طول القنوت فالخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم قائمون بالعبودية إما اقراراً بألسنتهم واما بآثار الصنعة البينة فيهم

ومن هذا الباب قوله تعالى « لا إكراه في الدِّين » قال قوم هذا خصوص في أهل الكتاب لا يكرهون على الاسلام اذا أدّوا الجزية وهو قول الشَّعبي وكان ابن عباس رضي الله عنهما يراه أيضاً خصوصاً وفسره فقال معناه أن المرأة من الانصار كانت لا يعيش لها ولد فتنذر على نفسها لئن عاش ولدها لتهودنه فلما أُجلي بنو النَّضير اذا فيهم ناس من أبناء الانصار فقال الانصار يارسول الله ابناؤنا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال قوم هي عموم ثم نسخت بقوله عز وجل « جاهدِ الكفَّارَ والمنافقين »

ومن هذا الباب قوله تعالى « علَّم الانسانَ مالَم يَعلَم » فذهب قوم الى انه خصوص واختلفوا في حقيقة ذلك فقال

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرانين ميسما

وأصل ميسم موسم قلبت الواو ياء لكسرة الميم.

بعضهم أراد آدم صلى الله عليه وسلم واحتجوا بقوله تعالى « وعلَّم آدم الأسماء كلَّها » وقال بعضهم أراد محمداً صلى الله عليه وسلم واحتجوا بقوله تعالى « وعلَّمك ما لم تكنْ تعلم » وقال آخرون هي عموم في جميع الناس وهو الصحيح

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم . المؤمن يأكل في معىً واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء . قال قوم هذا خصوص[1] في جهجاهٍ الغفاري ورد على النبي صلى الله عليه

---

(١) عرضت ما ذكره المؤلف (رحمه الله) هنا من تخصيص الحديث في جهجاه الغفاري على شيخنا العلامة الفهامة المحقق الشيخ محمد محمود ابن التلاميد التركزي الشنقيطي حفظه الله فأملى عليَّ ما نصه

أَلعجب كل العجب من قصور الأمام ابن السيد رحمه الله في اقتصاره على حديث غريب تفرَّد به موسى بن عبيدة عن عُبَيْدٍ ومن عدم ذكره غير جهجاهٍ الغفاري فيظن من لا علم له بالحديث ورجاله ورواته وبالسِّيَر والمغازي ورجالها ورواتها أن هذا الحديث لم يُرْوَ أنه قيل لأحد غير جهجاه والواقع في نفس الامر غير ذلك فقد روى ابن اسحق في أواخر سيرته أنه قيل في سيدنا ثُمامة بن أُثال الحنفيّ سيد أهل اليمامة وذكر قصة أسره واسلامه مستوفاة وقد خرَّج أهل الصحيح حديث اسلامه وفيه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان تَقتُلْ تقتل ذا دم وان تنعم تنعم

وسلم يريد الاسلام فحلبت له سبع شياه فشرب لبنها ثم أسلم فحلبت له شاة واحدة فكفته فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال هذه المقالة . وقال قوم انه عموم في كل كافر واختلفوا في حقيقة معناه فقال قوم معناه ان المؤمن يسمّي الله تعالى على طعامه فيكون فيه البركة والكافر بخلاف ذلك وقال آخرون انما ضرب هذا مثلا للزهادة في الدنيا والحرص عليها فجعل المؤمن لقناعته باليسير من الدنيا كالآكل في معى واحد والكافر لشدة رغبته في الدنيا كالآكل في سبعة أمعاء وهذا القول أصح الأقوال ويشهد لصحته ما رواه أبو سعيد الخدري

على شاكر وان ترد المال تعطه فقال عليه الصلاة والسلام اللهم أكلةٌ من جزور أحب اليّ من دم ثمامة فأطلقه فتطهر وأسلم وحسن اسلامه ونفع الله به المسلمين كثيراً . وكذلك قد ذكر غير ابن اسحق أنه هو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن يأكل في معىً واحد » الحديث وهذا ذائع شائع مشهور بين أهل السير والمغازي وقال أبو عبيد هو أبو بَصْرة الغفاري وروى ابن أبي شيبة في مسنده أنه جهجاه الغفاري وحديثه غريب كما ذكرناه سابقاً وروى ثابت في الدلائل أن اسم الذي قيل فيه هذا الحديث نَضْلة . وبهذا يعلم عدم طول باع الامام ابن السِّيد (عفا الله عنه) في الحديث والسير والمغازي ه

رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض) فقال له رجل يا رسول الله هل يأتي الخير بالشر فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنه يوحى اليه ثم مسح العرق عن جبينه وقال اين السائل فقال ها أنا ذا يا رسول الله فقال ان الخير لا يأتي الا بالخير ثلاثاً ولكن هذا المال خَضرة حلوة وان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً[1] أو يلم الا آكلة الخضر تأكل حتى اذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فبالت وثَلَطت ثم عادت فأكلت إن هذا المال خضرة حلوة من

(١) الحبط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها ويُلمّ مضارع ألمّ أي يقارب وثلطت أي سلحت رقيقاً ليناً . والخضر من العشب ما ليس من أحرار البقول .

وفي هذا الحديث مثلان (أحدهما) للمفرط في جمع المال مع عدم بذله في حقه (والآخر) للمقتصد في جمع المال وبذله في حقه فقوله صلى الله عليه وسلم وان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً هذا مثل الحريص والمفرط في الجمع والمنع وقوله صلى الله عليه وسلم الا آكلة الخضر الى قوله ثم عادت فأكلت هذا مثل المقتصد المحمود ه من لسان العرب باختصار

أخذه بحقه ووضعه فى حقه فنعم المعونة هو ومن أخذه بغير حقه ووضعه فى غير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع

ونحو من هذا أيضاً قول أبي ذر تخضمون ونقضم والموعد الله . والخضم الأكل بالفم كله فضرب به مثلا للرغبة فى الدنيا والقضم الأكل بأطراف الاسنان فضرب به مثلا للقناعة ونيل البُلغة من العيش وقيل الخضم أكل الرطب والقضم أكل اليابس وهو نحو المعنى الأول

وقد يأتي من هذا الباب ما موضوعه في اللغة على العموم ثم تخصصه الشريعة كالمتعة فانها عند العرب اسم لكل شيء استمتع به لا يخص به شيء دون آخر ثم نقلت عن ذلك واستعملت في الشريعة على ضربين (أحدهما) المتعة التى كانت مباحة في أول الاسلام ثم نهي عنها ونسخت بالنكاح والولي (والثاني) ما تمتع به المرأة من مهرها كقوله تعالى «ومتعوهنَّ على الموسع قَدَرُه وعلى المقتر قَدَرُه» ولأجل هذا الذي ذكرناه وقع الخلاف في قوله تعالى «فما استمتعتُم به منهنَّ فآتوهنَّ أجورَهنَّ فريضة» فكان ابن عباس رضي الله عنهما يذهب بمعناه الى المتعة الاولى وذهب جماعة الفقهاء الى أن المتعة

الاولى منسوخة وأن هذه الآية كالتي في البقرة وأن معنى قوله « فآتوهنّ أجورهنّ » انما المراد المهر والدليل على صحة قول الجماعة «فانكحوهنّ بإذنِ أهلهنّ وآتوهنّ أُجورهنّ» فهذا المهر بالاجماع والله أعلم

الباب الخامس

في الخلاف العارض من جهة الرواية

هذا الباب لا تتم الفائدة التي قصدناها منه إلا بمعرفة العلل التي تعرض للحديث فتحيل معناه فربما أوهمت فيه معارضة بعضه لبعض وربما ولّدت فيه اشكالا يحوج العلماء الى طلب التأويل البعيد ونحن نذكر العلل كم هي ونذكر من كل نوع منها مثالا أو أمثلة يستدل بها على غيرها ان شاء الله تعالى

إعلم أن الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين لهم رضى الله عنهم تعرض له ثمان علل (أولها) فساد الاسناد (والثانية) من جهة نقل الحديث على معناه دون لفظه (والثالثة) من جهة الجهل بالإعراب (والرابعة) من جهة التصحيف (والخامسة) من جهة اسقاط

شئ من الحديث لايتم المعنى الا به (والسادسة) أن ينقل المحدّث الحديث ويُغفل نقل السبب الموجب له أو بساط الامر الذي جرّ ذكره (والسابعة) أن يسمع المحدّث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه (والثامنة) نقل الحديث من الصحف دون لقاء الشيوخ

العلة الأولى

وهي فساد الاسناد وهذه العلة أشهر العلل عند الناس حتى أن كثيراً منهم يتوهم أنه اذا صح الاسناد صح الحديث وليس كذلك فانه قد يتفق أن يكون رواة الحديث مشهورين بالعدالة معروفين بصحة الدين والامانة غير مطعون عليهم ولا مستراب بنقلهم ويعرض مع ذلك لأحاديثهم أعراض على وجوه شتى من غير قصد منهم الى ذلك على ما تراه في بقية هذا الباب ان شاء الله سبحانه وتعالى

والاسناد يعرض له الفساد من أوجه منها الارسال وعدم الاتصال ومنها أن يكون بعض رواته صاحب بدعة أو متهماً بكذب وقلة ثقة أو مشهوراً ببله وغفلة أو يكون

متعصباً لبعض الصحابة منحرفاً عن بعضهم فان من كان مشهوراً
بالتعصب ثم روى حديثاً في تفضيل من يتعصب له ولم يرد
من غير طريقه لزم أن يستراب به وذلك أن إفراط عصبية
الانسان لمن يتعصب له وشدة محبته يحمله على افتعال الحديث
وان لم يفتعله بدّله وغير بعض حروفه كنحو ما فعلت الشيعة
فانهم رووا أحاديث كثيرة في تفضيل عليّ رضي الله عنه
ووجوب الخلافة له ينكرها أهل السنة مثل روايتهم أن نجماً
سقط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انظروا
فقي منزل من وقع فهو الخليفة بعدي فنظروا فاذا هو قد
سقط في دار عليّ فأكثر الناس في ذلك الكلام فأنزل الله
تعالى « والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى » فهذا
حديث لا يشك أحد ذو لبّ في أنه مصنوع مركب على
الآية وكالذي فعلت المعتزلة فانهم تجاوزوا تغيير الحديث الى
أن راموا تغيير القرآن فلم يصح لهم ذلك في القرآن لإجماع
الامة عليه وصح في كثير من الحديث فغيروا في المصحف
مواضع كثيرة كقراءتهم من شرٍّ ما خلق بالتنوين وقراءتهم
قال عذابي أصيب به من أساء بالسين غير معجمة وفتح الهمزة

وقالوا في قوله تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس » أن معناه دفعنا وأنشدوا قول المثقب(١)

تقول اذا ذرأتُ بها وَضيني   أهذا دينه أبداً وديني

وليس كما زعموا انما يقال في الدفع درأت بدال غير معجمة وكذلك روى بيت المثقب بدال غير معجمة وانما ذرأنا بالذال معجمة بمعنى خلقنا وقد روي عن بعضهم أنه قرأ ولقد ذرأنا

---

(١) هو المثقِّب العبديّ شاعر جاهلي قديم كان في زمن عمرو بن هند قاله ابن قتيبة في كتاب الشعراء واسمه عائذ بن مِحْصَن بن ثعلبة وسمي المثقب لقوله في هذه القصيدة

رددنَ تحيةً وكنمن أخرى   وثقَّبن الوصاوص للعيون

وأولها. أفاطمَ قبل بينك متّعيني. وقد ذكرها المفضّل في المفضليات وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول لو كان الشعر كله على مثل هذه القصيدة لوجب على الناس أن يتعلموه . وقوله رددن تحية الخ قال ابن الانباري أي أظهرن السلام ورددنه وكنمن أي سترن وهو ما يردّ من السلام بعين أو بيد وروي . ظهرن بكِلّة وسدلن أخرى . والكلة ما يرى على الهودج شبه الستار والوصاوص البراقع الصغار جمع وصوص ويروى أيضاً

أرينَ محاسناً وكننّ أخرى   من الاجياد والبشر المصون

وهذه الرواية ليس فيها الشاهد الذي سمي المثقب من أجله مثقباً هـ من خزانة الأدب للبغدادي بزيادة

بالدال غير معجمة

ومما يبعث على الاسترابة بنقل الناقل أن يعلم منه حرص على الدنيا وتهافت على الاتصال بالملوك ونيل المكانة والحظوة عندهم فان من كان بهذه الصفة لم يؤمن عليه التغيير والتبديل والافتعال للحديث والكذب حرصاً على مكسب يحصل عليه ألا ترى الى قول القائل (١)

ولستُ وإن قُرِّبت يوماً ببائع خلاقي ولا ديني ابتغاء التحبب
ويعتدّه قوم كثير تجارة ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

وقد نبّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو هذا الذي ذكرناه بقوله . إن الاحاديث ستكثر بعدي كما كثرت عن الانبياء قبلي فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله فهو عني قلته أو لم أقله .

وقد روى أنّ قوماً من الفرس واليهود وغيرهم لما رأوا الأسلام قد ظهر وعمّ ، ودوّخ وأذلّ جميع الأمم ، ورأوا انه لاسبيل الى مناصبته رجعوا إلى الحيلة والمكيدة فأظهروا الاسلام من غير رغبة فيه وأخذوا أنفسهم بالتعبد والتقشف

(١) من رجال باهلة العظام يخاطب عبد الملك بن مروان

فلما حمد الناس طريقتهم ولّدوا الاحاديث والمقالات وفرقوا الناس فِرَقاً وأكثر ذلك في الشيعة كما يحكى عن عبد الله بن سبأ اليهودي أنه أسلم واتصل بعلي رضي الله عنه وصار من شيعته فلما أخبر بقتله وموته قال كذبتم والله لو جئتمونا بدماغه مصروراً في سبعين صرة ما صدقنا بموته ولا يموت حتى يملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً نجد ذلك في كتاب الله فصارت مقالة يعرف أهلها بالسَبَئِيَّة ويقال انه قال عليٌّ هو إله وانه يحيي الموتى وانما غاب ولم يمت .

واذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتشدد في الحديث ويتوعد عليه والزمان زمان والصحابة متوافرون والبدع لم تظهر والناس في القرن الذي أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ظنك بالحال في الأزمنة التي ذمها وقد كثرت البدع وقلت الامانة ، وللبخاري ابي عبد الله رحمه الله في هذا الباب عناء مشكور . وسعي مبرور ، وكذلك لمسلم وابن معين فانهم انتقدوا الحديث وحرروه ونبهوا على ضعفاء المحدثين والمتهمين بالكذب حتى ضج من ذلك من كان في عصرهم وكان ذلك أحد الاسباب التي أوغرت صدور الفقهاء على البخاري فلم

يزالوا يرصدون له المكاره حتى أمكنتهم فيه فرصة بكلمة قالها فكفروه بها وامتحنوه وطردوه من موضع الى موضع وحتى حمل بعض الناس قلقه من ذلك على أن قال

ولابن معين (١) في الرجال مقالة سيسئل عنها والمليك شهيد
فان يك حقاً قوله فهو غيبة وان يك زوراً فالعقاب شديد

وما أخلق قائل هذا الشعر بأن يكون دفع مغرماً وأسرّ حسواً فى ارتغاء (٢) لان ابن معين فيما فعل أجدر بأن يكون مأجوراً من أن يكون مأزورا ، وألاّ يكون فى ذلك ملوماً

---

(١) هو الامام ابو زكريا يحيي بن معين المرّي البغدادي الحافظ المشهور صاحب اليد البيضاء في نقد الرجال قال فيه الامام أحمد بن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيي بن معين فليس هو بحديث وقال ابن الرومي ماسمعت أحداً قط يقول الحق في المشائخ غير يحيى بن معين وغيره كان يتحامل بالقول توفى سنة ٢٣٣ بالمدينة المنورة وكان بين يدي جنازته رجل ينادي هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله صلى عليه وسلم ﻫ من تاريخ ابن خلكان

(٢) هذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره . قال الشعبي لمن سأله عن رجل قبّل أم امرأته قال يُسرّ حسواً في ارتغاء وقد حرمت عليه امرأته ﻫ من لسان العرب

بل مشكورا

العلة الثانية

وهي نقل الحديث على المعنى دون اللفظ بعينه وهذا الباب يعظم الغلط فيه جداً وقد نشأت منه بين الناس شغوب شنيعة وذاك أن أكثر المحدثين لا يراعون الفاظ النبي صلى الله عليه وسلم التي نطق بها وإنما ينقلون الى من بعدهم معنى ما أراده بألفاظ أخرى ولذلك نجد الحديث الواحد فى المعنى الواحد يرد بألفاظ شتى ولغات مختلفة يزيد بعض ألفاظها على بعض . على أن اختلاف ألفاظ الحديث قد تعرض من أجل تكرير النبي صلى الله عليه وسلم له في مجالس عدة مختلفة وما كان من الحديث بهذه الصفة فليس كلامنا فيه وانما كلامنا في اختلاف الالفاظ الذي يعرض من أجل نقل الحديث على المعنى

ووجه الغلط الواقع من هذه الجهة أنَّ الناس يتفاضلون في صورهم وألوانهم وغير ذلك من أمورهم وأحوالهم فربما اتفق أن يسمع الراوي الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم أو من غيره فيتصور معناه في نفسه على غير الجهة التي أرادها

واذا عبر عن ذلك المعنى الذي تصوّر في نفسه بألفاظ أخر كان قد حدث بخلاف ما سمع من غير قصدٍ منه الى ذلك وذلك أن الكلام الواحد قد يحتمل معنيين وثلاثة وقد تكون فيه اللفظة المشتركة التي تقع على الشيء وضده كقوله صلى الله عليه وسلم. قُصّوا الشارب واعفوا اللّحا . فقوله اعفوا يحتمل أن يريد به كثّروا ووفّروا ويحتمل أن يريد به قلّلوا وخففوا فلا يفهم مراده من ذلك الا بدليل من لفظ آخر والمعنيان جميعاً موجودان في كلام العرب يقال عفا وَبَرُ الناقة اذا كثر وكذلك لحمها قال الله عز وجل « حتى عفَوْا » أي كثروا قال جرير [1]

ولكنا نُعضّ السيف منها بأسؤق عافيات اللحم كُوم

ويقال عفا المنزل اذا درس قال زهير . عفا من آل فاطمة

---

(١) تقدم في صحيفة ١٨ من هذا الكتاب أن صاحب لسان العرب عزى هذا البيت للبيد بن ربيعة . وهو الصواب كما أفادنيه شيخنا العلامة الشيخ محمد محمود الشنقيطي . وأملى عليّ من هذه القصيدة ابياتاً قبل هذا البيت وبعده يصف بها لبيد نوقه وكرمه واقرانه للضيوف منها

اذا مادرّها لم يقر ضيفاً ضمنّ له قراه من الشحوم

فلا نجاوز العضلات منها الى البكر المقارب والكزوم

ولكنا نعض السيف منها بأسؤق عافيات اللحم كوم

الجواء . ففي مثل هذا يجوز أن يذهب النبي صلى الله عليه وسلم الى المعنى الواحد ويذهب الراوي عنه الى المعنى الآخر فاذا أدّى معنى ما سمع دون لفظه بعينه كان قد روى عنه ضد ما أراده غير عامد ولو أدّى لفظه بعينه لاوشك أن يفهم منه الآخر مالم يفهم الاول وقد علم صلى الله عليه وسلم أن هذا سيعرض بعده فقال محذرا من ذلك . نضّر الله أمرأً سمع مقالتي فوعاها وأدّاها كما سمعها فربّ مبلَّغ أوعى من سامع . ومن نحو هذا ماروى عنه صلى الله عليه وسلم أن رجلاً جاءه فقال أيجوز اتيان المرأة في دبرها فقال نعم فلما أدبر الرجل قال ردوه عليّ فلما رجع قال في أي الخربتين[1] أردت أما من دبرها في قبلها فنعم وأما من دبرها في دبرها فلا .

وقد غلط قوم في حديث عائشة رضي الله عنها في

وكم فينا اذا ما المحل أبدى نحاس القوم من سمح هضوم
يباري الريح ليس بجانبي ولا دفر مروئته لئيم
اذا عد القديم وجدت فينا كرائم مايعد من القديم
وجدت الجاه والآكال فينا وعاديّ المآثر والأروم

(١) الخربة الثقب . وفي رواية في أي الخرزتين أو في أي الخصفتين يعني في أي الثقبتين والثلاثة بمعنى واحد وكلها رويت هـ لسان العرب

هذا المعنى . إذا حاضت المرأة حرم الجُحْرانِ . فتوهموا أن هـذا الكلام ينفك منه جواز الاتيان فى الدبر وهذا غلط شديد ممن تأوله وقد رواه بعضهم الجحرانُ بضم النون وزعم أن الجحران الفرج ذكر ذلك ابن قتيبة والرواية الاولى هي المشهورة وليس في الحديث شئ مما توهموه وإنما كان يلزم ماقالوه لو كانت الطهارة من المحيض شرطاً فى جواز إتيان المرأة فى جحريها معاً فكان يلزم عند ذلك أن يكون ارتفاع الطهارة سبباً لتحريمهما معاً كما كان شرطاً في تحليلهما معاً فاذا لم يجدوا سبيلاً إلى تصحيح هـذه الدعوى لم يلزم ما قالوه وإنما المعنى في حديث عائشة رضى الله عنها أن فرج المرأة يخالف دبرها في إباحة أحدهما وتحريم الآخر والاباحة التى خالفت بينهما معلقة بشرط الطهارة من الحيض فاذا ارتفع شرط الطهارة ارتفعت الاباحة التي كانت معلقة به فاستويا معاً في التحريم لارتفاع السبب الذي فرّق بينهما وهـذا كقول قائل لو قال اذا أسكر النبيذ حرم الشرابان يريد الخمر والنبيذ أي استويا في التحريم لأن النبيذ انما خالف الخمر بشرط عدم الاسكار فلما ذهب السبب والشرط الذي فرّق بينهما تساويا معاً في التحريم فكما أن هذا

الجحرانِ

القول لا يلزم منه إباحة الخمر قبل وجود الاسكار فى النبيذ فكذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها لا يلزم منه إباحة نكاح الدبر قبل وجود الحيض فى الفرج ونظير هذا أيضاً لو أن رجلا كان معه ثوبان أحدهما فيه نجاسة تحرم عليه الصلاة به والآخر طاهر يجوز له الصلاة به ثم أصابت الثاني نجاسة فقال له قائل قد حرمت عليك الصلاة بالثوبين انما المراد أن الثوب الثاني قد صار مثل الاول فى التحريم لعدم الشرط المفرّق بينهما وقد جاء فى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ما نحو نحو هذا وان لم يكن مثله من جميع الوجوه وذلك ما روي عنه صلى الله عليه وسلم من قوله . من سرّه أن يذهب كثير من وَحَرِ صدره فليصم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر . يريد بشهر الصبر شهر رمضان وليس المراد أن شهر الصبر مباح الأكل فيه لمن لم يسره ذهاب وحر صدره وانما معناه فليضف الى شهر الصبر الواجب صومه على كل حال ثلاثة أيام يصومها من كل شهر

ومن ظريف الغلط الواقع فى اشتراك الألفاظ ما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلم وهب لعلي رضي الله عنه عمامة

تسمى السحاب فاجتاز علي رضى الله عنه متعمما بها فقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن كان معه أما رأيتم علياً في السحاب أو نحو هذا من اللفظ فسمعه بعض المتشيعين لعلي رضي الله عنه فظن أنه يريد السحاب المعروفة فكان ذلك سبباً لاعتقاد الشيعة أن علياً في السحاب الى يومنا هذا ولذلك قال اسحق بن سويد الفقيه

برئت من الخوارج لست منهم من الغَزَّال[1] منهم وابن باب[2]

«١» هو ابو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي المعروف بالغزّال مولى بني ضبة وقيل مولى بني مخزوم وهو أحد البلغاء المتكلمين واليه تنسب الفرقة الواصلية من المعتزلة توفي سنة ١٣١ وله مؤلفات عديدة ﻫ من تاريخ ابن خلكان

«٢» هو ابو عثمان عمرو بن عبيد بن باب المتكلم الزاهد المشهور مولى بني عقيل آل عرادة بن يربوع بن مالك • كان شيخ المعتزلة في وقته توفي سنة ١٤٤ بموضع يقال له مَرَّان ورثاه المنصور العباسي بقوله

صلى الإله عليك من متوسِّد قبراً مررت به على مَرّان

قبراً تضمن مؤمناً متحنفاً صدق الاله ودان بالعرفان

لو ان هذا الدهر أبقى صالحاً أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ولم يسمع بخليفة يرثي من دونه سواه اﻫ من تاريخ ابن خلكان

ومن قوم اذا ذكروا عليّا يردّون السلام على السحاب
ولكني أحب بكل قلبي وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبّا به أرجو غداً حسن الثواب

وقد جعل بعض العلماء من هذا الباب الحديث المروي في خلق آدم على صورة الرحمن قالوا وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . خلق الله آدم على صورته . والهاء راجعة الى آدم فتوهم بعض السامعين انها عائدة على الله سبحانه وتعالى فنقله على المعنى دون اللفظ وهذا الذي قالوه لايلزم وسنتكلم على هذا الحديث إذا انتهينا الى موضعه من هذا الباب إن شاء الله تعالى . فهذه أمثلة من هذا النوع تنبه على بقيته ان شاء الله تعالى

العلة الثالثة

وهي الجهل بالإعراب ومباني كلام العرب ومجازاتها وذلك أن كثيراً من رواة الحديث قوم جهال باللسان العربي لايفرقون بين المرفوع والمنصوب والمخفوض ولعمري لو أن العرب وضعت لكل معنى لفظاً يؤدي عنه لا يلتبس بغيره لكان لهم عذر في ترك تعلم الاعراب ولم يكن بهم حاجة اليه

في معرفة الخطأ من الصواب . ولكن العرب قد تفرق بين المعنيين المتضادين بالحركات فقط واللفظ واحد ألا ترى أن الفاعل والمفعول ليس بينهما أكثر من الرفع والنصب فربما حدّث المحدّث بالحديث فرفع لفظة منه ينوي بها أنها فاعلة ونصب أخرى ينوي بها أنها مفعولة فنقل عنه السامع ذلك الحديث فرفع ما نصب ونصب ما رفع جهلا منه بما بين الامرين فانعكس المعنى الى ضد ما أراده المحدّث الأول . ألا ترى أن قوله صلى الله عليه وسلم . لا يُقتلُ قرشي صبراً بعد اليوم . اذا جزمت اللام من يقتل كان له معنى واذا رفعت كان له معنى آخر ولو أن قارئاً قرأ هو الاول والآخر ففتح الخاء لكان قد كفر وأشرك بالله واذا كسر الخاء آمن ووحّد فليس بين الايمان والكفر غير حركة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم . رحم الله امرأً أصلح من لسانه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلّموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن .

واللحن اللغة قال الشاعر

وما هاج هذا الشوق الا حمامة تبكّت على خضراء سُمر قيودها
صدوحُ الضحى معروفة اللحن لم تزل تقود الهوى من مسعدٍ ويقودها

وكذلك قوله تعالى « هو الخالِقُ البارِيُّ المصوَّر » ليس بين الايمان والكفر فيه غير فتح الواو وكسرها وكذلك قوله تعالى « وَيلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِين » ولو أن رجلين تقدما الى حكَم يدعي أحدهما على صاحبه بثوب فقرره الحكم على ذلك فانه ان قال ما أخذت له ثوب بالرفع أقرّ بالثوب على نفسه ولزمه احضار ثوب وان قال ما أخذت له ثوباً فنصب لم يقرّ بشيء ولزمته اليمين ان لم تقم عليه به بينة وكذلك لو قال رجل لامرأته أنت طالق ان دخلت الدار فانه ان فتح الهمزة طلقت عليه فى ذلك الوقت وانما تطلق عليه فيما يستقبل ان كان منها دخول الدار ويروى أن الكسائي رحمه الله كُتب اليه ما تقول فى رجل قال

فان ترفُقي يا هندُ فالرِّفق أيمن ... وان تخرقي يا هند فالخَرْق أشأمُ
وأنتِ طلاقٌ والطلاق عزيمةً ... ثلاث ومن يخرُق أعقّ وأظلم

فقال الكسائي رحمه الله ان كان رفع العزيمة ونصب الثلاث فهي ثلاث تطليقات وان كان نصب العزيمة ورفع الثلاث فهى واحدة . يريد أنه اذا رفع العزيمة ونصب الثلاث صار التقدير فأنت طالق ثلاثا والطلاق عزيمة على التقديم

والتأخير واذا نصب العزيمة ورفع الثلاث لم ينو بثلاث التقديم
وصار التقدير فأنت طالق وتم الكلام ثم قال والطلاق فى
حال عزيمة المطلق عليه ثلاث فلم يكن فى هذا الكلام مايدل
على أن هذا المطلق عزم على الثلاث فيقضى عليه بواحدة .
وقد يمكن أيضاً أن يرفع الثلاث والعزيمة معاً فيكون التقدير
فأنت طالق ثلاث والطلاق عزيمة فيلزم من ذلك ثلاث
تطليقات والله أعلم

العلة الرابعة

وهي التصحيف وهذا أيضاً باب عظيم الفساد فى الحديث
جدّا وذلك أن كثيراً من المحدّثين لا يضبطون الحروف ولكنهم
يرسلونها ارسالا غير مقيدة ولا مثقفة اتكالا على الحفظ فاذا
غفل المحدّث عما كتب مدة من زمانه ثم احتاج الى قراءة
ما كتب أو قرأه غيره فربما رفع المنصوب ونصب المرفوع كما
قلنا فانقلبت المعاني الى اضدادها وربما تصحف له الحرف بحرف
آخر لعدم الضبط فيه فانعكس المعنى الى نقيض المراد به وذلك
أن هذا الخط العربي شديد الاشتباه وربما لم يكن بين المعنيين
المتضادين غير الحركة أو النقطة كقولهم مكرم بكسر الراء اذا

كان فاعلا ومكرم بفتح الراء اذا كان مفعولا ورجل أفرع بالفاء اذا كان تام الشعر وأقرع بالقاف لا شعر فى رأسه وفى الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرع . وقد جائت من هذا الباب أشياء ظريفة من المحدثين نحو ما يروى عن يزيد بن هارون أنه روى . كنا جلوساً حول بشر بن معاوية وانما هو حول[1] بسر بن معاوية . وكما روى عبد الرزاق يقاتلون خُورَكرمان وانما هو خوز بالزاي معجمة . وكما صحف شعبة التِلبَّ العنبريَّ فرواه بثاء مثلثة مكسورة ولام ساكنة وانما هو التلب بالتاء معجمة باثنتين وكسر التاء واللام وتشديد الباء على وزن طمرٍ[2] ويدل عليه قول الشاعر

ان التِلِبَّ له عرسٌ يمانية ... كأن فسوتها في البيت اعصارُ

وروى بعضهم دخلت الجنة فرأيت فيها حبائل اللؤلؤ ولا وجه للحبائل ههنا لان الحبائل عند العرب الشباك التي

«١» وفي نسخة سرير ابن معوية . وما ندري ان كانت احديهما مصحَّفة أم لا

«٢» ذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه تفصيل المنتبه بتحرير المشتبه أن التلب بفتح أوله ككتف . وأفادنيه شيخنا العلامة الشيخ محمد محمود الشنقيطي

تصاد بها الوحوش وأحدتها حبالة ومن كلام العرب خَشِّ ذؤاله بالحبالة[1] وانما هو جنابذ اللؤلؤ والجنابذ جمع جُنْبُذَةٍ وهي القبة وهذا النوع كثير جداً وقد وضع فيه الدارقطني رحمه الله كتاباً مشهوراً سماه تصحيف الحفاظ[2]

ومن ظريف ماوقع منه في كتاب مسلم ومسنده الصحيح. نحن يوم القيامة على كذا أنظر. وهذا شئ لا يحصل له معنى وهكذا نجده في كثير من النسخ وانما هو نحن يوم القيامة على كُوَم والكوم جمع كومة وهو المكان المشرف فصحفه بعض النقلة فكتب نحن يوم القيامة على كذا فقرأ من قرأ فلم يفهم ماهو فكتب في طرة الكتاب أنظر بأمر

«١» هذا مثل يضرب لمن لايبالي بمن تهدده أي توعَّد غيري فاني اعرفك ويقابله في المثل العامي قولهم (على هامان يا فرعون) . وذؤاله اسم للذئب مشتق من الذألان وهو مشي خفيف ه من كتاب الامثال للميداني مع زيادة

«٢» ولأبي أحمد الحسن العسكري المتوفي سنة ٣٨٢ كتاب جليل سماه شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف مما يعرض في ألفاظ اللغة والشعر وغيرهما وهو موجود بالكتبخانة الخديوية نمرة (١٩٤) من فن الادب

قاريء الكتاب بالنظر فيه وينبه عليه فوجده ثالث فظنه من الكتاب فألحقه بمتنه

العلة الخامسة

وهي اسقاط شيء من الحديث لايتم المعنى الا به وهذا النوع أيضاً قد وردت منه أشياء كثيرة فى الحديث كنحو مارواه قوم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه سئل عن ليلة الجن فقال ماشهدها منا أحد وروي عنه من طريق آخر أنه رأى قوماً من الزّط فقال هؤلاء أشبه من رأيت بالجن ليلة الجن فهذا الحديث يدل على أنه شهدها والاول يدل على أنه لم يشهدها فالحديثان كما ترى متعارضان وانما أوجب التعارض بينهما أن الذي روى الحديث الاول أسقط منه كلمة رواها غيره وانما الحديث ماشهدها منا أحد غيري

العلة السادسة

وهي أن ينقل المحدّث الحديث ويغفل عن نقل السبب الموجب له فيعرض من ذلك اشكال فى الحديث أو معارضة لحديث آخر كنحو مارواه قوم من أن النبي صلى الله عليه وسلم اتي بالعرنيين الذين ارتدوا عن الاسلام وأغاروا على لقاحه فأمر

بقطع أيديهم وأرجلهم وسَمَل عيونهم وتركوا بالحرَّة يستسقون فلا يسقون حتى ماتوا وقد وردت عنه الروايات من طرق شتى أنه نهى عن المثلة وانما عرض هذا التعارض من أجل أن الذي روى الحديث الاول أغفل نقل سببه الذي أوجبه ورواه غيره فقال انما فعل بهم ذلك لانهم مثَّلوا برعائه فجازاهم بمثل فعلهم . ومن الفقهاء من يرى أن هـذا كان في أول الاسلام قبل أن تُنزل الحدود ثم نسخ

وقد ذهب بعض العلماء في قوله صلى الله عليـه وسلم إنَّ الله خلق آدم على صورته الى أنه مما أغفل الناقل ذكر السبب الذي قاله من أجله ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ برجل وهو يلطم وجه عبده وهو يقول قبح الله وجهك ووجه من أشبهك فقال النبي صلى الله عليه وسلم . إذا ضرب أحدكم عبـده فليتق الوجه فإنَّ الله خلق آدم على صورته قالوا فالهاء إنما تعود على العبد فلما روى الراوي الحـديث وأغفـل رواية السبب أوهم ظاهره أنها تعود على الله سبحانه وتعالى تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهـذا الذي قالوه ورووه غير معترض على رواية غيرهم من وجهين { أحدهما } أنه قد جاء في حديث

آخر رأيت ربي فى أحسن صورة وهذا لا يسوغ معه شيء من الذي قالوه (والثاني) أن الحديث له تأويل صحيح بخلاف ماظنوه وقد تكلم فيه ابن قتيبة فلم يأت فيه بمقنع بل جاء بما لو سكت عنه لكان أجدى بما عليه . وقد تكلم فيه ابن فُورَك [١] فأحسن كل الاحسان ونحن نذكر ما قاله بأوجز ما يمكن ونزيد ما يتم ذلك بحول الله تعالى فنقول بأن الضمير فى قوله على صورته يجوز أن يكون عائداً على آدم ويجوز أن يكون عائداً على الله تعالى فإذا كان عائداً على آدم فالغرض من الحديث الرد على الدهرية واليهود والقدرية وهذا من جوامع كلمه التي أوتيها صلى الله عليه وسلم

ووجه الرد على الدهرية من وجهين (أحدهما) أن الدهرية قالت إن العالم لا أول له وأنه لا يجوز أن يتكون حيوان إلا

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فُورَك المتكلم الاصولي النحوي الواعظ الاصبهاني ورد نيسابور فبنى له بها مدرسة وأحيا الله به أنواعاً من العلوم وبلغت مصنفاته في أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنف توفي سنة ستٍ وأربعمائة اه من تاريخ ابن خلكان باختصار .

من حيوان آخر قبله فأعلمنا صلى الله عليه وسلم أن الله خلق آدم على صورته التي شوهد عليها ابتداء من غير أن يتكون في رحم كما يتكون الجنين علقة ثم مضغة حتى تتم الخلقة (والثاني) أن الدهرية تزعم أن للطبيعة والنفس الكلية فعلاً في المحدثات المتكونة غير فعل الله تعالى عن قولهم فأعلمنا أيضاً أن الله تعالى خلقه على هيئته التي كان عليها وانفرد بذلك دون مشاركة من طبيعة ولا نفس

ووجه الرد على اليهود أن اليهود كانوا يزعمون أن آدم في الدنيا كان على خلاف صورته في الجنة وأن الله تعالى لما أهبطه من جنته نقص قامته وغير خلقه فأعلمنا بكذبهم فيما يزعمون وأعلمنا أنه خلقه في أول أمره على صورته التي كان عليها عند هبوطه

ووجه الرد على القدرية أن القدرية زعمت أن أفعال البشر مخلوقة لهم لا لله تعالى عن قولهم وهو نحو ما ذهبت إليه الدهرية من أن للنفس والطبيعة أفعالاً غير فعل الله تعالى فأفادنا أيضاً بطلان قولهم وأعلمنا أن الله تعالى خلقه وخلق جميع أفعاله فهذا ما في الهاء من القول إذا كانت راجعة على آدم صلى الله عليه وسلم وإذا كانت عائدة على الله تعالى كانت

إضافة صورة آدم إليه على وجه التشريف والتنويه والتخصيص لا على معنى آخر مما يسبق الى الوهم من معاني الاضافات فيكون كقولهم في الكعبة إنها بيت الله وقد علمنا أن البيوت كلها له وكقوله تعالى « وَعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمشُونَ على الأرض هَوْناً » وقد علمنا أن جميع البشر من مؤمن وكافر عباده وإنما خصصه بالإضافة إلى الله تعالى دون غيره لأن الله شرّفه بما لم يشرّف به غيره وذلك أنه عزّ وجل شرّف الحيوان على الجماد وشرّف الأنسان على سائر الحيوانات وشرّف الأنبياء عليهم السلام على جميع نوع الانسان وشرّف ادم على جميع نبييه بأن خلقه دفعة من غير ذكر وأنثى ودون أن ينتقل من النطفة إلى العلقه ومن العلقة الى المضغة وسائر أحوال الإنسان التي يتصرف فيها الى حين كماله ونسب خلقه الى نفسه دون سائر البشر فقال لما خلقت بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجد له ملائكته ولم يأمرهم بالسجود لغيره فنبهنا عليه باضافة صورته الى الله تعالى على هذه المنزله التي تفرد بها دون غيره ويدلك على صحة هذا التأويل قوله تعالى « وَنَفَخْتُ فيهِ من رُوحِي » وقوله « ولا أَعلَمُ مافي نَفْسِكَ » وقوله

« لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ » فكما لا تدل اضافته هـذه الاشياء اليه على أن له نفساً وروحاً ويدين فكذلك اضافة الصورة اليه لا تدل على أن له صورة. وقد يجوز في اضافة الصورة الى الله تعالى وجه فيه غموض ودقة وذلك أن العرب تستعمل الصورة على وجهين (أحدهما) الصورة التي هي شكل مخطط محدود بالجهات كقولك صورة زيد وصورة عمرو (والثاني) يريدون به صفة الشيء الذي لا شكل فيه يحس ولا تخطيط ولا جهات محدودة كقولك ما صورة أمرك وكيف كانت صورة قضيتك يريدون بذلك الصفة فقد يجوز أن يكون معنى خلق آدم على صورته أي على صفته فيكون مصروفاً الى المعنى الثاني الذى لا تحديد فيه فان قلت فما معنى هـذه الصفة وكيف تلخيص القول فيها فالجواب أن معـنى ذلك أن الله تعالى جعله خليفة فى أرضـه وجعـل له عقلا يعلم به ويفكر ويسوس ويدبر ويأمر وينهى وسلطه على جميع ما في البر والبحر وسخر له ما في السموات والارض وقد قال في نحو هذا بعض المحدثين يمدح بعض خلفاء بني أمية فقال

أمره من أمر مَنْ ملـّكه　　　فاذا ما شاء عافى وابتلى

فيكون معنى قولنا في آدم أنه خلق على صورة الله تعالى كمعنى قولنا فيه إنه خليفة الله تعالى وهذه التأويلات كلها لاتقضى تشبيهاً ولاتحديداً . فان قلت فكيف تصنع بالحديث المروي عنه صلى الله عليه وسلم . رأيت ربّي في احسن صورة . وهذا لايمكنك فيه شيء من التأويل المتقدم ولايصح لك حمله عليه . فالجواب أن هذا الحديث ورد بلفظ مشترك يحتمل معنيين (احدهما) أن يكون قوله في أحسن صورة راجعاً إلى الرائي لا إلى المرئي فيكون معناه رأيت ربي وأنا في أحسن صورة (والثانى) أن يكون قوله في أحسن صورة راجعاً الى المرئي وهو الله عز وجل فيكون معناه رأيت ربي على أحسن صفة فيكون الصورة بمعنى الصفة التي لاتوجب تحديداً كما ذكرنا وهذا في العربية كقولك رأيت زيداً في الدار فيجوز أن يكون قولك في الدار لك كأنك قلت رأيت زيداً وأنا في الدار ويجوز أن يكون المعنى رأيت زيداً وهو في الدار وعلى هذا تقول رأيت زيداً قاعداً قائماً ولقيت زايداً راكبين قال الشاعر

فلئن لقيتك خاليَيْنِ لتعلمَنْ أني وأيُّكَ فارسُ الاحزاب

فاذا كان التقدير رأيت ربي وأنا في أحسن صورة كان

معناه أن الله تعالى حسن صورته ونقله الى صفة يمكنه معها رؤيته إذ كان البشر لا يمكنهم رؤية الله تعالى على الصورة التي هم عليها حتى ينقلوا إلى صور أخرى غير صورهم ألا ترى أن المؤمنين يرون الله تعالى في الآخرة ولا يرونه في الدنيا لأن الله تعالى ينقلهم عن صفاتهم الى صفات أخر أعلى وأشرف فعجل الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم هذه الكرامة قبل يوم القيامة خصوصاً دون البشر حتى رآه وشاهده والله يؤتي فضله من يشاء ويختص بكرامته من يريد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وإذا كان ذلك راجعاً الى الله تعالى كان معناه أنه رأى ربه على أحسن ما عوده من إنعامه وإحسانه وإكرامه وامتنانه كما تقول كيف كانت صورة أمرك عند لقاء الملك فتقول خير صورة أعطاني وأنعم عليّ وأدناني من محل كرامته وأحسن إليّ فهذان تأويلان صحيحان خارجان على أساليب كلام العرب دون تكلف ولا خروج من مستعمل الى متعسف وقد جاء في بعض الاحاديث أنها كانت رؤية في النوم فاذا كان الامر كذلك كان التأويل واضحاً لأنه لا ينكر رؤية الله تعالى في المنام وبالله التوفيق

العلة السابعة

وهي أن يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه كنحو ماروي من أن عائشة رضى الله عنها اخبرت أن أبا هريرة حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن يكن الشؤم ففي ثلاث الدار والمرأة والفرس وهذا الحديث معارض لقوله لاعدوى ولاهامة ولا صفر ولاغول وقد روي في أحاديث عنه كثيرة أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التطير فغضبت عائشة رضي الله عنها وقالت والله ماقال هذا رسول الله قط وانما قال أهل الجاهلية يقولون ان يكن الشؤم ففي ثلاث الدار والمرأة والفرس فدخل ابو هريرة فسمع الحديث ولم يسمع أوله وهذا غير منكر أن يعرض لان النبي صلى الله عليه وسلم كان يذكر في مجلسه الاخبار حكاية ويتكلم بما لايريد به أمراً ولا نهياً ولا أن يجعله أصلا في دينه وشيئاً يستسن به وذلك معلوم من فعله ومشهور من قوله

العلة الثامنة

وهي نقل الحديث من المصحف دون لقاء الشيوخ والسماع من الائمة وهذا باب عظيم البلية والضرر في الدين

فان كثيراً من الناس يتسامحون فيه جداً وأكثرهم انما يعوّل
على إجازة الشيخ له دون لقائه والضبط عليه ثم يأخذ بعد
ذلك علمه من الصحف المسوّدة والكتب التي لا يعلم بصحتها
من سقمها وربما كانت مخالفة لرواية شيخه فيصحف الحروف
ويبدّل الالفاظ وينسب جميع ذلك الى شيخه ظالماً له وقد صار
علم أكثر الناس في زماننا هذا على هذه الصفة ليس بأيديهم
من العلم غير أسماء الكتب وانما ذكرت لك هذه العلل
العارضة للحديث لأنها أصول لنقاد الحديث المتثبتين بمعرفة
صحيحه من سقيمه فاذا ورد عليهم حديث بشع المسموع أو
مخالف للمشهور نظروا أولا في سنده فان وجدوا في نقلته
ورواته رجلا متهماً ببعض تلك الوجوه التي ذكرناها إسترابوا
به ولم يجعلوه أصلا يعوّل عليه وان وجدوا رجاله الناقلين
له ثقات مشهورين بالعدالة معروفين بالفقه والامانة رجعوا
إلى التأويل والنظر فان وجدوا له تأويلا يحمل عليه قبلوه ولم
ينكروه وان لم يجدوا له تأويلا الا على استكراه شديد نسبوه
الى غلط وقع فيه من بعض تلك الوجوه المتقدمة الذكر فهذه
جملة القول في هذا الباب والله أعلم

الباب السادس

« في الخلاف العارض من قبل الاجتهاد والقياس »

هـذا النوع إنما يكون فيما يعدم فيه وجود نصّ من قرآن أو حـديث فيفزع الفقيه عند ذلك الى استعمال القياس والنظر كما قال الشاعر

اذا أعيا الفقيهَ وجودُ نصّ تعلّق لا محـالة بالقيـاس

والخلاف العارض من هـذا النوع نوعان (أحـدهما) الخـلاف الواقع بين المنكرين للاجتهاد والقياس والمثبتين لهما (النوع الثاني) خلاف يعرض بين أصحاب القياس في قياسهم كاختلاف المالكية والشافعية والحنفية فتعرض من ذلك أنواع من الخلاف عظيمة وهذا الباب أشهر من أن نطيل القول فيه

الباب السابع

« في الخلاف العارض من قِبَل النسخ »

الخـلاف العارض من هـذا النوع يتنوع أولاً نوعين (أحـدهما) خلاف يعرض بين من أنكر النسخ وبين من أثبته . وإثباته هو الصحيح وجميع أهل السنة مثبتون له وإنما خالف في ذلك من لا يلتفت الى خـلافه لأنه بمـنزلة دفع

الضرورات وإنكار العيان (والنوع الثاني) خلاف عارض بين القائلين بالنسخ وهذا النوع الثاني ينقسم ثلاثة أقسام (أحدها) اختلافهم في الاخبار هل يجوز فيها النسخ كما يجوز في الأمر والنهي أم لا (والثاني) اختلافهم في هل يجوز أن تنسخ السنة القرآن أم لا (والثالث) اختلافهم في أشياء من القرآن والحديث فذهب بعضهم الى أنها نسخت وبعضهم إلى أنها لم تنسخ

الباب الثامن

في الخلاف العارض من قبل الاباحة

هذا النوع من الخلاف يعرض من قبل أشياء أوسع الله تعالى فيها على عباده وأباحها لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كاختلاف الناس في الأذان والتكبير على الجنائز وتكبير التشريق ووجوه القراآت السبع ونحو ذلك

فهذه أسباب الخلاف الواقع بين الأمة قد نبهت عليها وأرشدت قارئي كتابي هذا اليها وهذا الكتاب وان كان صغير الجرم يسير الحجم فان فيه تنبيهات على أشياء جليلة يحسن سمعها ويحلو من نفس الذكي مراقبها وأنا أستغفر الله من

ذلك ان كان عرض ، وأسأله عوناً على ما تعبد به وفرض
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى يوم
الدين والحمد لله رب العالمين

﴿ خاتمة المصحح ﴾

يقول الفقير احمد عمر المحمصاني البيروتي الازهري قد
نجز طبع هذا الكتاب العجيب المنزع الذي يشبه المخترع وإن
كان غير مخترع وقد عانيت في تصحيحه وضبط كلماته وشرح
أبياته ومعرفة قائليها عناء عظيماً لولا ما تداركني الله بهمة شيخنا
العلامة الفهامة المحقق المدقق الاستاذ الشيخ محمد محمود ابن
التلاميد التركزي الشنقيطي حفظه الله ونفع به وبعلومه المسلمين
فقد طالما أزاح عني مشكلات وأفصح عن تحقيق جليل وقد
عزوت اليه في مواضع من هذا الكتاب ما أملاه عليّ وأفادنيه.
فجزاه الله عني وعن الاسلام والعلم وأهله خير الجزاء آمين
كما أني أشكر حضرة السري الهمام الكامل احمد بيك تيمور
على إعارته لي نسخته من هذا الكتاب فأكملت نقصاً كان فى
نسختي وقابلتها عليها أيضاً والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

فهرست

هذا الكتاب الجليل

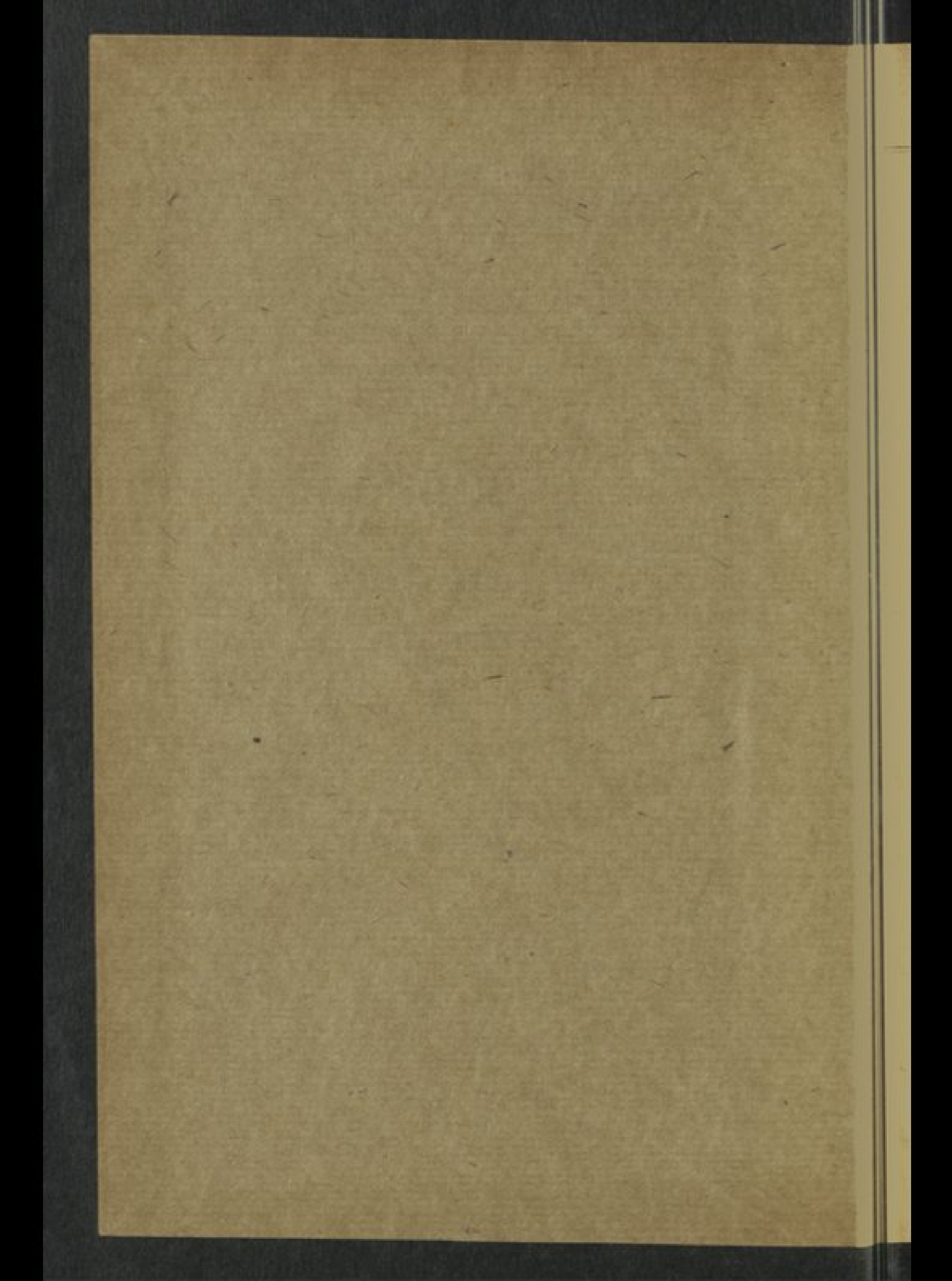
صحيفة

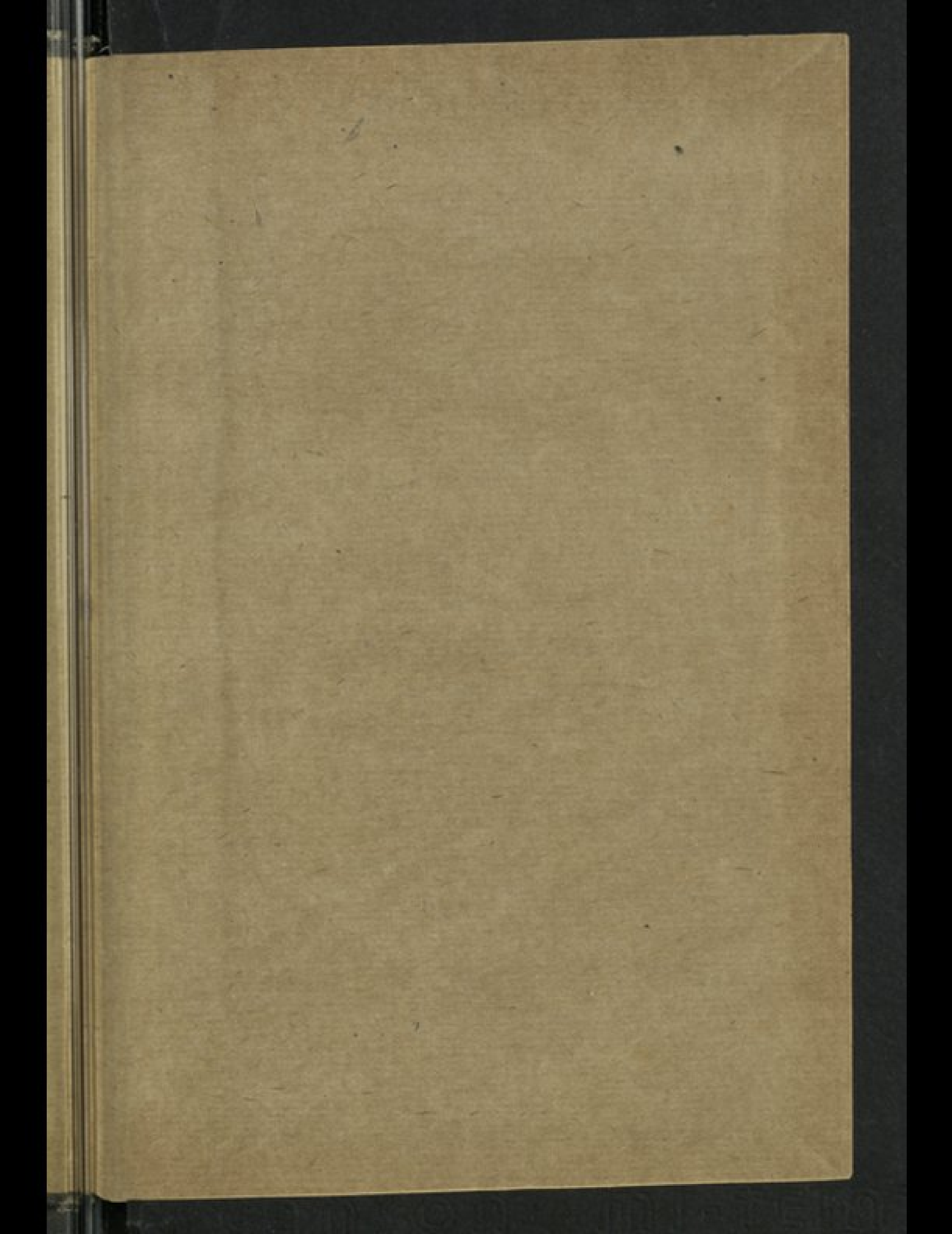
صحيفة

صحيفة

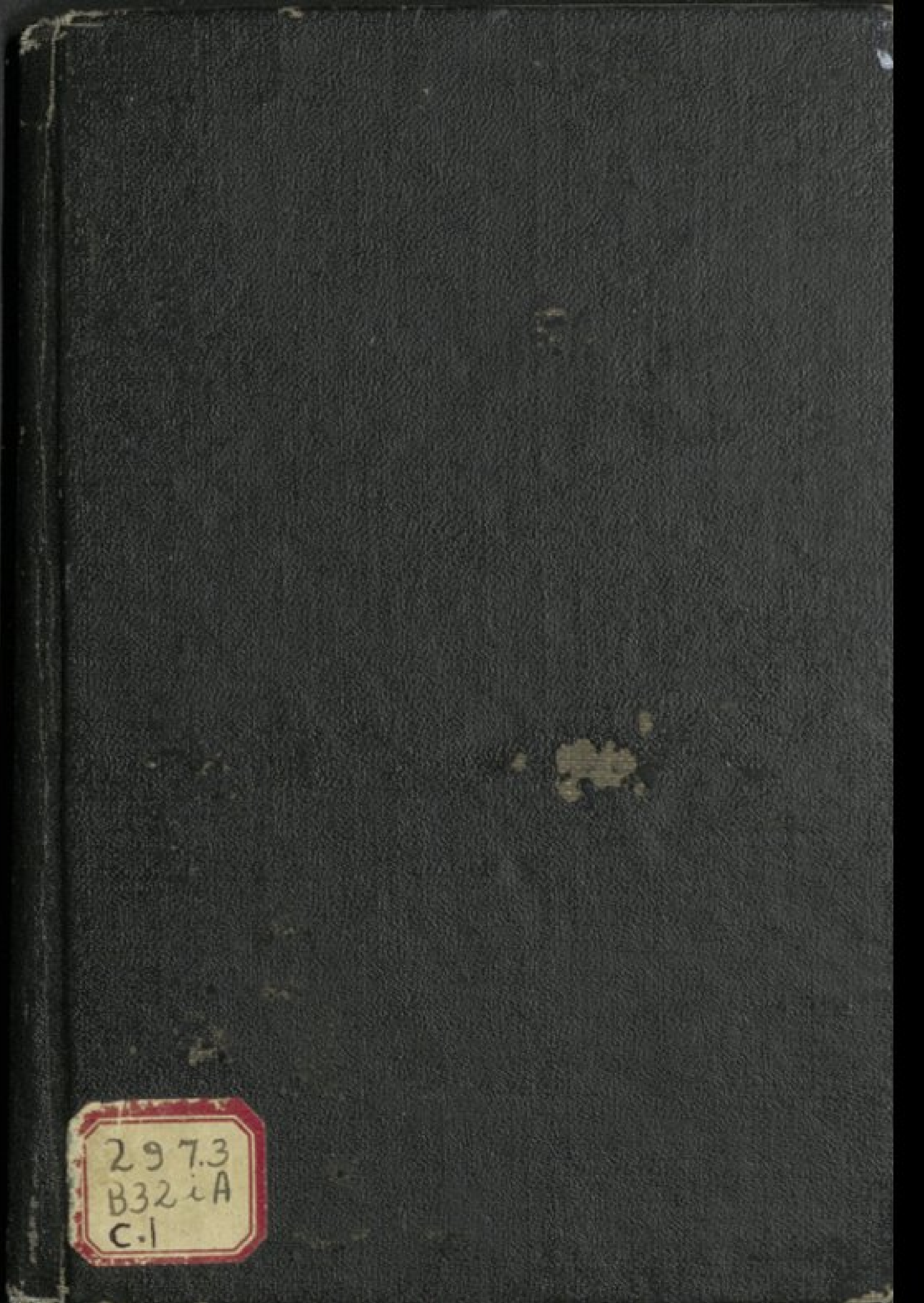
صحيفة

صحيفة






AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت



297.3
B32iA
c.1